تصدير

يجد القارىء لهذا العدد إعلانا عن مسابقة فى القصة والرواية والقراءة القصصية . وكان هذا الاعلان تنفيذا لأحدى توصيات ملتقى القصاصين الذى انتظم بمناسبة الاحتفال بمرور عشرين سنة على تأسيس نادى القصة بتونس (1964 ـ 1984) .

واذا كان الاعلان عن مسابقة القصة والرواية يعود الى الرغبة فى شحذ الهمم على الانتاج ، ودفع العزائم على المزيد منه ، وتخطى ما قد يحصل من عقبات تعويق أو تثبيط فان المسابقة فى الدراسة القصصية تهدف الى شىء آخر ، الى شىء مفقود أو يكاد ألا وهو الدراسات النقدية لما يصدر من أعمال قصصية . وذلك نقص واضح فينا لم يجد من يسد فراغه بدارس متخصص أو كاتب متفرغ . وتلك شكوى طالما ارتفعت بها الاصوات .

واذا كانت عملية النقد تعد مساهمة فى الابداع نفسه تقويما ودفعا فان وجود تلك العملية متحتم لا محالة. واذا كان الابداع عمدته الموهبة التى يصعب إنشاؤها وغرسها فان عملية النقد هى أقرب الى العقل والدربة وما الى ذلك مما ينميه المران وتهذبه المعالجة .

إن النقد يتوقف على الانتاج . والانتاج موجود بالوفرة النسبية ، ويكون غياب النقد ـ عندئذ ـ ناتجا لا عن علة ذلك التوقف ، بل ناتجا إما عن كسل

ذهني أو عن إخضاع النقد لايديولوجية محددة ، أو حتى عن خوف من ردود الفعل النفسية التى يقابل نقادنا بما يقال لهم أو عليهم حول ما يكتبون من نقد . وذلك مظهر ضعف ونقص ، وعلة رهبة وتخوف بنيا على مـركب عظمة زائفة واكتمال أجوف ، فالذى لا يقبل سماع ما فيه من نقص مريض لا يقـل مرضا عمن يدعي الكمال المطلق أو يكاد . وكلاهما مظهر نقص .

وقد حاولت جلسات نادى القصة المتعددة أن تبعث فى نفوس حاضريها مبدأ تقبل النقد النزيه ، والتقييم السليم إيمانا من أعضاء النـادى بضرورة إبراز هذا المظهر إذ هو علامة صحة قبل أن يكون علامة مرض . وأيقن أولائك الاعضاء أنهم قطعوا أشواطا فى ذلك . لكنهم ما يزالون يرون تلك التجـربة محدودة لا تفي بالغرض فلم تخرجه الى الساحة الفسيحة والمسافة البعيدة . وكان هذا وذاك مما دفع بالنادى على إعلان تلك المسابقة عسى أن يكون محركا ودافعا الى تدارك نقص لا يحسن السكوت عليه .

« قصـص »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ساسى حمام

الزيارة

الامير سيزور القرية . انتشرت هذه الاشاعة فى القرية واصبحت حديث الرجال والنساء والاطفال ثم الدكاكين والمنازل والحقول ، واتسعت العيون دهشة وتراكمت الاسئلة وثقلت الحيرة ، الامير عطوف على رعيته لذلك اراد الخروج من قصره ليتفقدها بنفسه ويطلع على أحوالها وأول محطة ستكون هذه القرية النائية الجاثمة على صدر هذه الاراضى القاحلة ، الاشاعة اصبحت حقيقة عندما وقف المنادى فى سوق القرية وضرب على طبله ضرباته المعهودة وكورها ثانية وثالثة فعرف القوم أن الامر مهم يستحق الاستماع فتركوا ما فى أيديهم وتحلقوا حوله فصاح فيهم : «ابشروا أيها السكان ... ابشروا أيها السكان واقيموا الافراح فان مولانا وسيدنا ومالك رقابنا أميرنا المفدى سيزور القرية قريبا ..» .

تفرقت الجموع المحتشدة يداعبها الامل فى رؤية القرية وقد تغيرت معالمها فلا يجوز أن يرى الامير هذه الخرب لذلك ستنقلب الى حضيرة كبيرة وسيكسب الناس أموالا كثيرة يشترون بها الملابس الجديدة والجرارات الحديثة والحفارات العملاقة وقطعان الماشية وستقام مدرسة أين يقضى الاطفال كامل يومهم ويكفون عن مشاكسة الاحمرة والخيول فالامير يريد نشر العلم بين الرعية ويرتاح لرؤية المدارس .

أمر شيخ القرية أحد عملته بالجلوس على أعلى ربوة تشرف على الطريق المؤدية الى القرية ليعلمه بقدوم المهندسين والبنائين والشاحنات ليقوم بواجبات الضيافة ولكن الايام مرت والاسابيع انقضت ولم ير المرابط أو السكان عيارا يتصاعد الى عنان السماء فاستبد بهم اليأس والقنوط فدعا الشيخ الاهالى ليشاورهم فى الامر .

انحدرت الشمس وراء الافق فتقاطر الاهالى الى بيت الشيخ . جلسوا فى فناء المنزل الواسع ولما اكتمل الجمع جاء الشيخ وجلس على دكة أمامهم ونادى

خدمه وأمرهم بتفريق الشاى والحلويات على الضيوف ثم تنحنح وهمهم معلنا بداية الاجتماع وقال لهم بصوت مرتفع :

ـ لم أدعكم هذه الليلة لتذكيركم بالزيارة ولكن دعوتكم لمعرفة ما يجب علينا أن نفعل لانجاحها ٠

ـ وماذا يجب علينا أن نفعل ؟

ـ نغير وجه القرية ، نزيل هذه الاوساخ المتراكمة ، نصلح ما تداعى من الجدران ونطلى الابواب بالدهن ونقيم معالم الزينة ونحضر المأكولات التى تليق بمولاناو٠ حشيته ومرافقيه وبحراسه وجنوده ٠

ـ ومن الذى سيقوم بهذه الاعمال ؟ ومن سيتكفل بهذه المصاريف ؟

ـانتم طبعا ٠٠٠

ـ نحن لا نستطيع ٠٠٠ انك تعرف أنه لم يعد يفصلنا عن موعد الزيارة غير أيام معدودات وتعلم كذلك أننا لا نملك المال اللازم لكل هذه الاعمال ٠

ـ الم يقولوا انه يريد أن يطلع على أحوالنا ؟ لماذا نخفى عليه الحقيقة اذن ؟ يجب عليه أن يرى اين نسكن وماذا نلبس وكيف نعيش ٠

ـ يجب عليه أن يعرف بؤسنا وشقاءنا وفقرنا ٠

ـ اية حقيقة ؟ وأى بؤس وشقاء ؛ اتريده أن يغضب علينا ويتهمنا بعدم حبه والوفاء له ؟

ـ لم يطلب منه أحد زيارتنا ٠

ـ يزورنا الامير فتتخرب بيوتنا !

ـ انها لزيارة مشؤومة حقا ٠

نقر الشيخ الارض بعصاه بغضب ورفع صوته صائحا :

ـ اعرف أنكم لا تملكون المال وقد فكرت فى هذا الامر ولذلك فسأتكفل أنا شخصيا بجميع المصاريف ثم تسددون ما بذمتكم اقساطا ٠

ـ كيف يكون ذلك ؟ ٠٠٠ وضح كلامك ٠٠٠

ـ من له أرض أقسم معه صابته مدة أربع سنوات ومن ليس له أرض يعمل فى أرضى بنصف الاجر نفس المدة · اتفقنا ؟

ـ لا لم نتفق · هذا الحل لا يرضينا · ليذهب الامير الى الجحيم ·

ـ كيف تجرؤ على شتم الامير أيها الوقح ··· والله لو لم تكن فى بيتى لامرت بحبسك الآن · واعلموا أن من يعصى أمرى سآمر بحبسه وخير لكم أن تمكثوا بجانب زوجاتكم وأبنائكم ·

ـ طيب اتفقنا · قل لنا ماذا سنفعل ؟

ـ الامر بسيط · نبدأ من الغد · أنا سأذهب الى المدينة واشترى كمية كبيرة من اللوح وتقيمه أمام الجدران وتطليه بالدهن الابيض ثم نلصق عليه صور مولانا وسيدنا ووزرائه وقسم منكم ينظف الشارع من هذه الاوساخ المتراكمة وهذه الحجارة المتناثرة ، وقسم آخر يحفر حفرا فى الحقول التى سيمر الركب الميمون قريبا منها ، وآخر ليلة تملأ هذه الحفر ماء ، ونشترى اشجارا مثمرة نزرعها فى تلك الحقول يجب عليه أن يعرف أن قريتنا مزدهرة وأننا نعيش فى رخاء ·

مرت الايام ثقيلة طويلة كالدهر نفذ فيها السكان كل ما أمرهم الشيخ · وصباح اليوم الموعود ذبح الذبائح ونادى بعض أعوانه وطلب منهم أن يحرسوا مخارج القرية ومداخلها وأن لا يتركوا أحدا كبيرا أو صغيرا يذهب الى الحقول مهما كان السبب وأمر السكان بأن لا يدخلوا بيوتهم هذا اليوم وأن يمكثوا على حافتى الطريق حتى يصفقوا وينادوا بحياة اميرهم ثم خرج فى نفر من المقربين اليه خارج القرية لاستقباله ·

لم تتوسط الشمس السماء حتى رأى الملأ الغبار يتصاعد وسمعوا ضجيجا وموسيقى تقترب منهم شيئا فشيئا ، رأى الشيخ الموكب فتقدم نحوه ولما اقترب منه تقدم خطوات ثم ركع على الارض الى ان مست جبهته التراب ثم نهض ولما وصل الى المركبة الاميرية ارتمى على يد الامير وقبلها وتأخر ومشى الى الوراء حتى وصل الى جواده فركبه وأخذ مكانه خلف الموكب وواصلوا طريقهم نحو القرية ·

وصل الموكب الى القرية تتقدمه فرقة الموسيقى تعزف الاناشيد معلنة قدوم الامير · ثم ظهرت فرقة من الحرس الاميرى على الجياد المطهمة مرتدية لباسا مزركشا ومدججة بالاسلحة المتنوعة · ثم ظهرت المركبة الاميرية يجرها جوادان

أصيلان تصدر وسطها الامير يرفل فى الديباج والحلل والحلي على يمينه وزير من وزرائه وعلى شماله عبد يرفع مظلة تقيهما اشعة الشمس ووراءهما عبد ان يحرك كل منهما مروحة من ريش النعام ووراء الموكب الشيخ . توغلت الفرقة الموسيقية فى الشارع ولكن أحدا لم يحرك ساكنا ، اجسام واقفة كأجذاع نخل نخرها السوس ، عيون مترجرجة تحملق فى الفضاء ، افواه ظهر على جانبيها زبد أبيض من شدة العطش والجوع ، أيدى متشققة ساقطة لا تروم حركة ، وقف الشيخ يحرض السكان على الصياح والتصفيق ولكن الجمود لم ينزح عنهم . نظر الامير الى وزيره نظرة

فهم معناها فنهض الاخير وفتح كيسا أمامه وأخذ منه حفنة ورماها أمام الناس فاذا هى دنانير ذهبية . لم يتحرك أحد ولم ينحن أحد كبيرا أو صغيرا لالتقاط الدنانير . رمى الوزير حفنة ثانية وثالثة ورابعة ولكن رنين النقود ولمعانها لم يؤثرا فى الجموع الواقفة . غضب الامير غضبا شديدا وتطاير الشرر من عينيه فاوقف الوزير العربة ونادى احد الواقفين وسأله عن اسباب عدم اهتمامهم بالنقود فقال له :

ـ لم نتعود الانحناء لالتقاط النقود .

ـ ما هذه الوقاحة . اتكفر بنعمة مولانا؟

ـ أية نعمة هذه ؟ نحن نموت جوعا وعطشا . ولكننا نرفض هذه الصدقات . اتعتقد أننا حيوانات تلقى على رؤوسها بعض الحشائش أو الحبوب فتجرى نحوها وتتزاحم عليها وتعمل فى اجسادها نطحا ونقرا وركلا ليضحك مولانا الامير .

غير الامير وجهة العربة بعنف فصمتت الموسيقى وهجم الحرس على المواطنين وانهالوا عليهم ضربا بالسياط والهراوات فاختلط صياح الرجال وعويل النساء وبكاء الاطفال بصهيل الخيل الجامحة وقرقعة السياط ثم مسكوا مجموعة كبيرة منهم وكتفوهم وربطوهم الى الخيول وجروهم الى سجن اقرب مدينة . مضت الايام والاسابيع والشهور والسنوات ولم يرجعوا الى منازلهم ، ومات الامير وجاء آخر وآخر ولكن يوم الزيارة بقى محفورا فى ذاكرة القرية الى اليوم .

ساسى حمام

منزل تميم

سبتمبر ـ أكتوبر 1984

الـقـــوادم والخـــوافـى

أفقت من نومى مذعورا . وصوت أبى ينهرنى : أفق أيها الثور الكسول . قم والا حطمت رأسك وجعلتك تواصل النوم الى الابد . وتذكرت بسرعة ـ وأنا أفرك عينى ـ ما خططه أبى لمستقبل والعائلة على مائدة العشاء .

لقد قال ـ على مسمع من الجميع ـ : إن هذا البغل العجوز ـ يعنى أنا ـ لم يبق له الا ان يتشرد . لفظته المدرسة بعد أن تمسك بالاخفاق واعتصم بـه . مله البيت ولعنته الحارة فلم يعد يرتجى منه نفع فى كل مكان .

ذهبنا به الى دكان الحلاق ليتقن الحديث ويجلب لنفسه الرزق فانزعج وفر . عجنا به على نجار يعلمه الاكل بيديه فتمرد . لم تسعك الارض فهل اذهب بك الى السماء . سأجعلك تحفظ طرقات المدينة وتتقن قراءتها بأقدامك . كنا نحيط بما سميناه تجاوزا « مائدة » ولن تكون حين أفضحها الا أثرا من مائدة اصطدم بها أبى ليلا فى احدى المنعطفات . وكان الاحتفال بدخولها الى بيتنا مهيبـا . فقد غسلتها أمى بالماء الساخن والصابون وأنواع أخرى من المواد الكيمياوية. ونشفتها بعناية كما لم تفعل مع أحد من اخوتى قبلها . وأحطنا وتربع أبـى فوق أريكته « الخيشية » وعلاه زهو من أضاف الى بيته أثاثا ثمينا .

لا أتحدث عما وضع عليها من مآكل ليلتها . ولكنى أقسم أنى لم أذق قبلها أكلا ألذ منه طعما ولا أشهى رائحة مع الاعتراف ولو على سبيل الفضل للماء والملح والخضر . فما نعرف طعم اللحوم غير الذى خلقه الله فى أفواهنا منـذ التكوين أو ما تتصاعد رائحته من قدور الجيران . ولك بعد هذا ان تتصـور البيت حيث نستظل .

رفعت رأسى وأنا شبه نائم فقد حرمنى صوت أبى من حلم كنت سأستمتع به . وهرعت الى اناء الماء عل يدى تصل اليه فأمررها على وجهى ولكنه كان مصابا بالجفاف . يا للجفاف الذى نستضيفه .

كنت أسير والمدينة نائمة . ومن خلفى يتدحرج ذلك الشبح المخيف الذى هو أبى . ذلك الرجل البدين القصير . ولكنه سريع الخطى خفيف الحركة . يطالعك وجهه فلا تحسب الا انه يتأهب لمصارعتك . وما تخلى مرة عن الصرامة حتى وهو يضحك ـ وقلما يفعل ذلك ـ وتحت إلحاح الظروف .

كنت أسير والمدينة حالمة ليس فى شوارعها غيرنا والقطط وبعض المتشردين الذين يحسبون أن المدينة أخليت من أجلهم ، وكنت أنتفض اذا تنحنح أبى أو اتفق أن هزه السعال .

وقتها أحسست أن علاقتى به تشققت وأننا تباعدنا الى حيث لم يبق هناك نقطة التقاء تجمعنا .

كنت أسير مسرعا أستجدى الدفء فى ليلة الشتاء هذه حتى من مظلة على واجهة دكان . والتصق تارة بالحيطان . وكان شبه الحذاء الذى أنتعله لا يقدر على وقاية نفسه من تسرب المياه وأنا أخوضها بركا . وفى احدى المنعطفات من الزقاق الضيق الملقى فى المدينة العتيقة يعتمه الظلام اصطدمت رجلى ووقعت بكلى على كائن حى . لقد ترك نفسه هناك والقى بها دون عناية فصاح بى : « النبي عربى أنر مصابيح وجهك » واردف :

« من الطارق ؟! حتى فى هذه الساعة يلاحقنا الاحراج ؟ »

وقعت فضمنى اليه بقوة . ومرر يده يتحسس وجهى . وصرعتنى رائحة الحمرة وأنواع أخرى من النتونة . وتمادت يده تتحسس أماكن أخرى من جسدى فكانها تبحث عن شىء فى مكان معين .

وأسرع أبى يجذبنى اليه بعنف وهو يزمجر : احكم إغلاق باب بيتك ان كنت تريد أن لا يزعجك المارة . هه . تلقون بأنفسكم فى الطرقات ثم تطلبون منا ألا ندوسكم !

وأجاب الرجل بتهكم : لو كنت أعلم أن ركبكم سيمر من هنا لأنرت الشارع من أجله . فأقل ما يقدم لجلالتكم ثمن شمعة .

وابتعدنا تاركين الرجل يهذي حتى لم نعد نسمع منه غير صدى القهقهات. ولعل العدوى أنتقلت الى أبى فأصابته هو أيضا حيث واصل يتحدث وبصوت مسموع ومن يدرى فلعله يحدثنى أنا : تدفعون بأنفسكم الى البؤس تلاحقون

الفاقة • من شبع يوما جاع عاما • فى بلاد الله الاخرى يتقنون الفقر ينحتونه فنا . أما عندنا فالغنى يصنع فقرا . فهل الفقر هو الخصاصة ؟ أقسم أننا نمشى على أيدينا لتظهر لنا الاشياء معكوسة . وباغته السعال فهو يحاوره .

أدخلت أمى يدها فى الخريطة فدخلت معها العيون . عيوننا نحن أطفالها وكنا حفنة قد تغيب عنا أسماء البعض منا دون مراجعة • الاناث صورة طبق الاصل منها • لكننا نحن الذكور سرقنا من أبينا أوصافه واقتسمناها بحيف • فقد كان أخى هشام مفرطح الانف قصيره • والهادى بارز الوجنات عظيم الرأس . وأنا قصير اليدين مقوس الساقين . والآخر جاحظ العينين عريض الكتفين بارز البطن . وهكذا حتى ينتهى أبونا فينا جميعا .

وبرزت يد أمى من الخريطة مفتوحة لا شىء فيها فصدرت عنا تنهيدة جماعية ولاول مرة اجتمعنا على غير اتفاق وكنا قبلها نتفق فلا نجتمع .

ومشيت لا أبالى فقد ينتهى السير الى نقطة ما .

وجه أمى والمائدة وأيدى اخوتى الصغار التى لا تحصى والعيون التى تنتظر، والصقيع المهيمن على المدينة ، وحشية القفش التى وعدت جدتى أن أرثها اذا ما قدر لها ان تتوسد التراب ، رائحة القهوة والبخار المتصاعد ، وحموة الرغيف الرقيق . كل ذلك داهمنى فى لحظة واحدة فأثار فى أشياء صعب علي الالتصاق بها مباشرة ، واستشرت ضميرى فأهمل نصحي .

افرغت فنجان القهوة دفعة واحدة وحشوت فمى بعدها بالخبز الرهيف . فاكتشفت وقتها السعادة وكانى عبدت طريقا بين قارتين .

لماذا لا تدخن . قالت نفسى تحدثنى : « وقد صرت كبيرا وفى جيبك الدراهم » وضعت السيفارة بين أصابعى فى كبرياء . واشعلتها مزهوا وحاولت أن أنفث الدخان من أنفى لكن السعال خنقنى فعادت نفسى تقول : لن ينطفىء هذا اللهيب الا بذلك البخار الخفيف الذى تتجشؤه القوارير . فلماذا لا تجرب؟ نفذت كل أوامر الحرمان فارتاحت لذلك نفسى .

نفدت البضاعة وانتهت النقود فالى أى اتجاه ستكون مسيرتى وفى أى شاطىء يمكن ارساء هذا الزورق وليس به مجاديف •

وغنت المدينة على قرع النكؤوس وهبط الظلام وليل العواصم رهيب • أأعود الى البيت فاحتمى باحضان أمى وهى العاجزة عن حماية نفسها من نقمة أبى • ليت جدتى كانت هنا فهى ملاذى . لقد هربت الى المجهول فاخرجوها مرغمة . مسكينة جدتى العجوز ومسكين أنا بعدها فحتى حشية القش التى أورثتنى لم أنم عليها ليلة واحدة بل ساعة من ليل • فقد تسللت أختى الكبيرة مريم لتتمدد بجانب الجدة وهى تحتضر.وزاحمتها حتى تدحرجت ومن قبل ان تفارق عالمها بدقائق . وتظاهرت بالحزن حتى المرض ومططت الزمن حتى جف ذكر الحشية على كل لسان . ومضيت . كل طريق يقول لى كلمة . وكل عابر يوحى إلي بفكرة . هز مني الخوف وظلام الليل ولجلجة السكارى . تبخر كل ما بعثته من خلال حلقى فكأنه ظل سبيله الى الامعاء . قهرنى الجوع وحيثما التفت لا تالعنى الا الاشباح من خلال بلور النوافذ • وكبر حلمى بالعودة فطغى على دقات قلبى المفجوع . وقلت هذه المرة أحدث نفسى :

حتى لو بتروا أعضائي فسأجد من بين اخوتى من يذرف معى دمعا •

التـابعي الأخضـر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حسن نصر

الاصـــــرار

رأيتها بين الأنقاض فى مخيم صبرا ، تميزت فجأة من خلال الهدم والدمار ، تقشعت سحب الدخان ، وملأت المشهد • فتاة يافعة فى ثوب أحمر ، برزت فى أقصى الصورة ، تحت سماء نارية تتوهج كالفولاذ ، راحت تدحرج بين يديها كيسا ثقيلا ، تتنقل به وسط الخرائب ، تجره عبر ركام الاتربة ونتوءات المبانى المنهارة ، وقضبان الحديد الملتوية ، والحجارة المبعثرة ، مخطوفة النظرة ، لم يدل عليها خبر .

منذ أمد قصير ، توقف الطلق النارى ، سكت صوت الرصاص ، انطفـات الحرائق ، وعادت عصابات القتلة من حيث جاءت ، اختفت سياراتهم ، تلاشى صوت هديرها فى الضباب ، وتكشف المنظر عن صورة مرعبة .

جثث القتلى تنتشر فى الارجاء ، رائحة الموت يفوح بها المكان ، صمت ثقيل جامد مرعب ، شيخ ملقى على قفاه ، عصاه تستقر الى جانبه كأنه سقط لتـوه ويهم بأن ينهض ليلتقط عصاه ، طفلة نصفها يطل من النافذة كالثمرة تدلت من غصنها وقد انشطر نصفها . امرأة منكبة على وجهها فى الاسفل أوراكهـا بيضاء ناصعة فى وجه الشمس ، قطة مقتولة بمحاذاة حائط بـارد أسـود ، وثور بطنه مبقورة وأمعاؤه بارزة .

على مدى البصر ، عبر الطريق لا أثر لانسان ، لا شىء يتحرك ، سحب من الدخان هنا وهناك ، سماء داكنة ، زمن مستعص على التحديد ، ما عدا ذلك لا أثر لحياة على كامل المشهد الذى تحده الخرائب من الجانبين .

الفتاة وحدها فى ثوبها الاحمـر ، تتنقـل ببـطء تدحـرج الكيـس بين يديها ، تسحبه خلفها مرة وتحمله على كتفها مرة ، وقد استحـوذ على كامـل المنظر ، ربما لانها الكائن الوحيد الذى بقي حيا وشاهدا على كل الذى حدث ، وأكثر من ذلك هذا الكيس الذى تنوء بحمله ولا تريد أن تفرط فيه .

نظرت اليها فى كثير من الاهتمام من غير أن يرتعد قلبى ، لقد اعتـاد أن يداهمه الوجع دون سابق انذار ، ان الجرائم الكبيرة لا تمحى من الذاكرة ، كما ان الحقائق لا يمكن أن تختفى ما لم يتم الكشف عنها .

واصلت متابعة المشهد ، ظللت أرقبها من مكانى متأملا كيف يمكنها أن تعبر وسط الانقاض والحجارة المبعثرة وهى تدحرج الكيس هنا وهناك وأنا فى حيرة من أمرى أتساءل هل تراها ستعبر فوق هذا الدمار وتصل الى هدفها سالمة أم ستستسقط وتتخلى عن الكيس الذى فى يدها .

الفتاة تتقدم فى خطوات بطيئة لكنها متزنة وثابتة ، ثم توقفت لتنظر قليـلا الى الوراء ، ربما الى الشوط الذى قطعته ، وماذا بقي عليها للوصـول ، بـدت كأنها لم يكن يعنيها شىء من أمر هذا الخراب ، فهى لا تهتم به ولا تقيم له وزنا ، إنما التفتت لتقيس مقدار المسافة التى قطعتها . كل ما فيها يدل على أن لديها مهمة محددة ثابتة ، وأنها فى الطريق الصحيح للوصول الى هدفها .

انتظرتها الى أن قربت من المكان الذى كنت أراقبها فيه ، حيـن أصبحت بالقرب مني ، تعمدت أن تراني ، لكنها لم تلق إلي خبرا ، وتابعـت طريقهـا كأننى غير موجود ، فلحقت بها وناديتها :

ـ إيه ، انت ، أيتها الفتاة .

ـ .....

ـ لماذا لا تجيبين ، أين أهلك ؟!

ـ فى قبضة الجنود يذبحونهم .

ـ ورجال المقاومة ؟!

ـ لم يعد بامكانهم أن يساعدونا .

ـ لمـاذا ؟!

ـ انهم توقفوا عن القتال .

ـ كيف يتركونهم ؟

ـ لم يعد بوسعهم أن يفعلوا لنا شيئا .

ـ لكن ماذا حدث ، اخبرينى .

ـ رجال المقاومة تركوا المدينة وراء ظهورهم وراحت تحملهم السفن خلف البحر .

ـ وأبوك ؟

ـ .....

ـ أبوك هل رحل معهم ؟

ـ أنا ليس لى أب .

ـ ذاك الذى (وأبديت اشارة ذات معنى) ألم يكن أباك ؟

ـ ليس أبي .

ـ لكننى رأيتك معه يوما .

ـ لو كان أبي لما تركهم يذبحوننا .

ـ هو يقول لى : إنه أبوك .

ـ لو كان أبي لما تركنا وحدنا .

ـ يبدو أن خطأ ما .. حدث .

ـ لم نعد نحتاجه لم يبق له شىء عندنا .

ـ ماذا تقولين ؟!

ـ لم يبق له شىء حتى فرسه قتلوه .

ـ وهل رحل من غير أن يأخذ فرسه ؟

ـ إن من يرحل تاركا وراءه فرسه خير له أن لا يعود .

كان آخر فرس يتبقى بعد أن انتهى جميع الفرسان ، لكن نهايته كانت رائعة .

ورفعت الفتاة رأسها فى شموخ ، وراحت تتحدث عن الفرس : « وجدته خائفا ، قرأت فى عينيه آثار الرعب ، وكان مشدودا بواسطة الحبل الى دائرة من الحديد ، ففككت له الحبل وأطلقت سراحه ، لكنه بقى فى مكانه ، لم يشأ أن يذهب من غير سيده . كانت فرصة الهروب مواتية ، لكنه لم يفعلها ، وقف ينظر بريب الى الذى يحدث ، لم يدر ماذا جرى ، راح يرفع قوائمه فى

الهواء عاليا فى حركات بلهاء ، ويصهل بشدة واحتجاج ، وفجأة توقف ينظر :

رآهم قادمين ، يدفعون جمعا من النساء والاطفال والشيوخ ، يوقفونهم فى صف واحد ، يديرون وجوههم الى الحائط ، ثم يطلقون الرصاص على ظهورهم من الخلف دون تمييز .

انتصبت قوائم الفرس ، اشرأب عنقه ، وقف منتظرا ، واتسعت عيناه . وأخيرا جاء دوره ، فانصب عليه وابل من الرصاص ، خرقه من الرأس حتى الظهر . عند ذلك تراجع خطوتين الى الوراء ، وسقط مقعيا على مؤخرته ، بينما ظلت قوائمه الامامية منتصبة ، وأخيرا لوى عنقه ومات واقفا من غير أن يسقط .

نظرت اليه . كان يموت وعيناه تنظران اليهم باحتقار .

لكن لا شيء يستحق كل هذا الاهتمام ، الحياة تمضى مستمرة ، والذى يسقط فيها سينهض من جديد أقوى مما كان .

قلت لها : « دعيني أساعدك » .

فنظرت إلي بفرح : « لست خائفة ، إننى احذق الطريق جيدا الى بيتى ، وأنا فى طريقى اليه ، انما فقط أترقب رجوع رفيق لى اسمه صلاح . هل تعرف صلاح ، إنه شاب فى مثل عمرى شديد الثقة بنفسه لا يخاف من شيء فى هذا العالم ، اتفقنا معا على الزواج . ذهب فى مهمة ، حمل المتفجرات لينسف جسرا قديما تمر عليه عربات عتيقة من الماضى ، لم نعد فى حاجة اليها ولا الى ذلك الجسر القديم ، بعد أن يفجر الجسر سيعود لنحتفل بالزواج ، وسأنجب ثمانية عشر طفلا » وقفزت ضاحكة .

وقفت حائرا أفكر فى أمرها . وحين انتبهت من غفلتى ، بحثت عنها ، فلم أعثر لها على أثر ، غابت فجأة وسط الخرائب . لكن الشيء الذى بقي يحيرنى ، ونسيت أن اسألها عنه ، ترى ماذا كانت تخفي داخل الكيس ؟!

حسن نصر

النص : لفرنسواز هاروامونين

تعريب : أحمد ممو

المعلوماتية فى خدمة الرواية

« اذا كنت متأسفا لموت مارغريت فى نهاية رواية « غادة الكاميليا » فما عليك الا انتظار كتابة هذه الرواية عن طريق المعلوماتية وهو ما سيمكنك من شفائها وجعلها تتزوج ارمان دوفال . هذا ما تمكنك منه الرواية المعلوماتية » .

اليوم وجدت تلك الرواية التى لا تنتهى . إنها الرواية المعلوماتية . ففى الولايات المتحدة الامريكية ـ ومنذ سنوات خلت ـ طبعت المعلوماتية الادب بطابعها . ورغم ذلك فان الآلة لم تستعمل بعد لكتابة مؤلفات من نوع جديد ولكن تستعمل فقط لنسخ تراكيب منطقية لبعض البرامج المعلوماتية من أجل وضع كتب تختلف فى ما بينها . فالبرنامج المعلوماتى متركب فى الاساس من «متتالية» من الاوامر يتوقف تتابعها فى لحظة على اختيار الشخص المستعمل لها . وكمثال بسيط على ذلك فان البرنامج الذى يمكن أن يستعمل فى حساب المساحة يمكن أن يفصل بالشكل التالى :

ـ فى البداية يقع اختيار الشكل الهندسى الذى يراد حساب مساحته : دائرة ، مستطيل ، مربع ...

ـ إذا وقع الاختيار على الدائرة :

1 ـ يقع البحث عن قيمة الشعاع (ش) .

2 ـ يحسب المجهول (س = ش) .

3 ـ تعرض نتيجة الحساب .

4 ـ يقع الرجوع الى البداية .

ـ إذا وقع الاختيار على المستطيل :

1 ـ يبحث عن طول المستطيل (ط) .

2 ـ يبحث عن عرض المستطيل (ع) ... الخ ...

ـ إذا وقع الاختيار على المربع :

1 ـ بحث عن طول الضلع (ض) الخ ...

ـ إذا لم تكن رغبة فى حساب مساحة ما :

1 ـ نهاية البرنامج .

باستعمال مثل هذه البرامج التنظيمية أمكن لبعض المؤلفين كتابة مؤلفات كاملة يتمكن فيها القارىء نفسه من بناء حكايته بحسب الاختيارات التى يتخذها فى كل خطوة . ففى كل فقرة يجد القارىء مجال الاختيار بين جملة من الامكانات فمثلا : لنتصور حكاية رحالة يكتشف أرضا جديدة فهو عندما يصل الى مفترق طرق يمكنه من الذهاب الى الشمال فى اتجاه البحر كما يمكنه من الذهاب الى اليمين فى اتجاه الجبال . ويمكنه أيضا من المواصلة الى الامام لكى ينتهى الى الغابة . فى هذه النقطة يكون أمامه اختيارات ثلاثة . ولكن فى الحقيقة فالاختيار قد ترك هنا للقارىء . وبذلك تمكن مطالعة نفس الرواية مرات عديدة دون أن تكون الحكاية هى نفسها فى كل الحالات .

هذا النوع من التأليف الذى سمى « ترتيبى » (Combinatoire) يلقى ، فى الوقت الراهن ، صدى كبيرا فى البلدان الانقلوساكسونية وخاصة لدى الاطفال . وقد تمت فى المدة الاخيرة ترجمة الرواية الاولى من هذا الصنف الى الفرنسية ونشرت لدى (Folio Junior) تحت عنوان : « ساحر جبل النار » .

اعتمادا على نفس المبدا الترتيبى أمكن لمجموعة من الباحثين وضع الرواية المعلوماتية الاولى التى يشارك القارىء فى بنائها . هذه الرواية مخزونة فى ذاكرة راتبة ويمكن للقارىء أن « يتصفحها » انطلاقا من شاشة فيديو متصلة بنهائى ألكترونى (Terminal) . وبما أن النهائيات الالكترنية تحمل مواصفاتها الخاصة حسب طريقة صنعها فقد ذكرت الكاتبة نوعين لهذا النهائى هما : (Teletel) و (Minitel) . وكالرواية الترتيبية التى سبق

الحديث عنها فان الرواية المعلوماتية تبنى على شكل شجرة يقود كل اختيار فيها الى فرع يختلف عن البقية . وتكون بعض الفروع غير قابلة للتفرع اللانهائى وذلك بالتقائها مع تفرعات أخرى مكونة بذلك « دوائر » فى هيكل الحكاية نفسها . زيادة على الاختيارات التى يمكن للقارىء أن يختار منها ما يراه مناسبا فان الشاشة يمكن ان تعكس أيضا « الكلمات المفاتيح » مكتوبة بأحرف خاصة . وهذه الكلمات المفاتيح هى التى تسمح بالخروج عن سياق الحكاية الاساسية مما يمكن القارىء من استقاء معلومات خاصة بتلك الكلمة المفتاح التى يتوقف عندها .

وكما هو الشأن بالنسبة للرواية الترتيبية عبالامكان مطالعة الرواية المعلوماتية عدة مرات دون العثور على نفس الحكاية فى جميع الحالات . فيمكن مثلا سرد حكاية كاملة قائمة على العقدة كما يمكن سرد السيرة الشخصية لاحدى الشخصيات أو الاقتصار على وصف الاماكن التى تقع بها الاحداث . كما يمكن ــ أيضا ــ إبراز العلاقات العائلية التى تربط الشخصيات الى بعضها ... الخ ... وفى الجملة فالرواية المعلوماتية متعددة المداخل . ويمكن لصفحات الشاشة أن تمزج بين النص الكتابى والصور وذلك باستعمال كل إمكانيات الشاشة الفيديو من كتابة وصورة . فالرسوم جعلت لتدعيم الصورة التى يصفها النص الكتابى . فمثلا فى حالة تعرض النص الى جريمة قتل فان الشاشة تبدو بظلال حمراء فى لون الدم الذى وقعت إراقته . واذا تحدث النص عن دخول البطل الى قبو مثلا فان الشاشة تزداد قتامة وتظهر عليها خيوط نسيج العنكبوت .

فالرواية المعلوماتية تقرن بين إمكانيات الكتاب الترتيبى والمداخل المتعددة عن طرق الكلمات المفاتيح بالاضافة الى الامكانيات البيانية لشاشة الراتبة . وهكذا أمكن لهذا النوع من الرواية أن يجد مجالا فى تصور هؤلاء الباحثين الأربعة . فكل من (Camille Philibert) و (Guillaume Baudin) تكفلا بالرسوم البيانية وكتابة النص كما تكفل كل من (Elie Chabert) و (J-P. Martin) بانجاز البرنامج الذى يكيف هذه الرواية لامكانيات الراتبة وتكفلت الشركة (SERPEA) وهى شركة مختصة فى مشاكل الاتصالات اللاسلكية بالوقوف وراء المؤلفين الاربعة لتمكينهم من انجاز مشروعهم هذا .

وقد أطلق على هذه الرواية المعلومانية الاولى اسم : (ASCOO) وهو اسم متكون من الاحرى الاولى فى الكلمات المفاتيح التى يعتبرها أصحاب المشروع أساسية فى مكونات الحكاية . وهذه الكلمات هى :

ـ A من : Abondon وتمثل الوضعية الحقيقية للشخصيات اذ هى فى اغلبها شخصيات يتيمة ضائعة .

ـ C من : Commande وتعني وضع تراتيب المراقبة والتتبع فى مدينة ما (هى هنا مدينة ... الفرنسية) .

ـ O من : Ordre وهى تعرف التحرك المنتظم داخل الحكـاية أى كيفية المرور من فرع الى آخر .

ـ O من : Opérateur وتدل على الوظيفة التى تناط بعهدة القارىء فى صلته بالرواية .

ودون أن نتيه وراء معنى هذا العنوان فان هذه الرواية المعلوماتية الاولى تشبه فى بدايتها اى رواية بوليسية . فمنذ الصفحة الاولى على الشاشة تظهر شخصيتان هما : « إيميل » (Emile Croulebois) و Pauline زيـادة عـلى إحدى الكلمات المفاتيح المتمثلة فى اسم مدينة (Liège) وللقارىءالاختيار بين متابعة احدى الشخصيتين أو التعرف على المدينة . وتبعا لاختيـاره الذى يعبر عنه بواسطة لوحة حروف النهائى الالكترونى فبامكان القارىء أن يعرف مثلا أن (Panatole) ـ وهو أستاذ متخصص فى التاريخ الفرعونى ـ كان قد درس (Pauline) ، وقع اغتيـاله . كمـا يمكنـه أن يعـرف أن امـرأة اسمهـا Branca de Césaire كانت تسعى الى توريط Emile فى قضايا مشبوه فى اخلاقياتها ، كما يمكنه أن يعرف أيضا ان جهازا بوليسيا لمراقبة وتتبع متساكنى هذه المدينة هو فى مرحلة الوضع حيز التنفيذ ... ومع توالى تسلسل الحكاية تظهر شخصيات أخرى مثل : Charles Deframont و Séverine و Ceméra Woman و Pièrres... الخ . وهى شخصيات تبدو حياة كل منها غير مرتبطة فى الظاهر بالآخرين . ولكن يحدث أن تلتقى هذه الشخصيات أو تكتشف وجود علاقات عائلية تربطها . فاميل Emile مثلا نراه يتسكع فى المكتبة الـوطنية باحثـا عن وثائق هامة . ثم نراه بعد بضـع صفحـات على

الشاشة يموت فى حادث مرور تحت النظـرات المتكسـرة لكاميـرا ورومـان Caméra Woman . وحادث المرور هذا غير ذى أهمية إذ إن اميل يمكنه أن يعود الى الحياة إن رغب القارىء فى ذلك . بهذا الشكل يمكـن للقارىء أن يقضى مئات الساعات فى ترتيب وإعادة ترتيب الخمسمائة صفحة التى تتركب منها هذه « الحكاية » . وفى كل مرة تأخذ الحكاية معنى جديدا .

كل شخصية من شخصيات الرواية لها تأثيرها على الاسلوب السردى وعلى الرسوم البيانية المصاحبة لحكايتها . فمثلا بيانكا Bianca هذه الشخصية الشريرة تصاحبها على الشاشة صفحات أكثر عدوانية وأكثـر صراخـا من مواقف بولينا Pauline الشخصية الرقيقة .

وبما أن مساحة الشاشة لا يتسع مجالها للجمل الطويلة والوصف المسهب فان الكتابة تأتى بسيطة ومباشرة . ولكن إضافة الرسوم تجعـل واحـدة من الشاشة مجالا لخطابـات متعـددة كالخلط بين الصـور المتحـركة والاحـرف الهيروغليفية والكتابة العادية .

هذه الرواية ASCOO هى رواية بوليسية لا نهاية لها أو على الأصح يمكن أن تكون لها كل النهايات التى تتصورها الخيوط الخفية لبرنامج الراتبة وهو ما يوجد آلاف الترتيبات والتوافقات الممكنة .

عندما تم عرض هذه الرواية بمعرض الكهرباء والالكترونيك للقرن العشرين (المنعقد من 10 ديسمبر 82 الى 5 فيفرى 83 بمتحف الفـن الحـديث لمـدينة باريس) أمكن لمئات من الزوار تصفحها خلال الاسابيع التى تواصل فيهـا العرض . وكان المعدل اليومى للاشخاص الذين أولوا اهتمامهم لتحركات اميل أو بيانكا يقدر بحوالى خمسين شخصا .

وقد أضاف مؤلفو الرواية الى نصها مجالا يمكن القارىء من الدخـول فى حوار مباشر مع شخصيات الرواية وذلك بغرض دراسة ردود فعل القراء . فكان يكفى مثلا أن يكتب القارىء كلمة « اكتب » ثم يضغط بعـد ذلك على زر الارسال لكى ينفتح أمامه هذا المجال الخاص . وأمكن بذلك لأكثر من مـائتى شخص توجيه خطابـات عـاطفية أو تهديد لبعض الشخصيـات من نـوع : « بيانكا .. لقد أحببتك .. كيف يمكن اللقـاء ؟.. » . أو « سنقضى عليهـم

الأوغاد .. ! » . بالاضافة الى تساؤلات من نوع : « ماذا كنت تفعل يا اميل مع توت عنخ امون فى القاعة الداخلية ؟.. » . وطبعا كانت الخطابات موجهة الى شخصيات ألكترونية ينتهى وجودها بمجرد ايقاف الآلة عن العمل . ولـم يحدث الى الآن فى عالم الأدب ان وجهت رسائل لاحدى الشخصيات الادبية غير شارلوك هولمـز وذلك حسب العنـوان الـذى وضعـه مـؤلفه كونـان دويـل (Conan Doyle).

هذه الـرواية ASCOO لم تدخل ميدان التسويق بعد . وهى تقبع الآن فى جوف الراتبة الخاصة بشركة Serpéa ، ولا مجال لمطالعتها الا أثناء المعارض وذلك الى أن تتمكن هذه الشركة من إيجاد الصيغة الملائمة لتسويقها. وهو ما سيمكن من وضعها فى متناول كل مرة من يملك نهائى / ألكترونى من نوع « فيديـو تـاكس » وهم عديدون إذ إن وزارة البريد والبرق والهاتف قد وزعت منذ منتصف السنة الماضية (83) معدل 20.000 نهائى/الكترونى من نوع « ميني تال » وتدريجيا ستغطى الشبكة كامل التراب الفرنسى .

مطالعة رواية من نوع ASCOO عن طريق نهائى الاتصال الالكترونى هى خدمة معلوماتية تمكننا منها وزارة البريد والبرق والهاتف . وككل الخدمات المعلومانية فهى لن تكون مجانية لان صفحات من الشاشة عن طريق الشبكة التليفونية انطلاقا من الراتبة المجهزة ببرنامج هذه الرواية (وعملية النقـل هذه تسمى « الخديم » فى لغة المعلوماتية) الى النهائي الالكترونى الذى هو فى متناول القارىء تتكلف بمصاريف يجب أن يدفعها طرف ما . وفى هـذا السياق فان نقل معلومات « فيديو تاكس » عن طريق شبكة البريد والبرق والهاتف يتم حاليا بمقابل 60 صنتيما لكل دقيقتين وسيصبح هذا المقابل 65 صنتيما فى القريب . وبذلك تكون كلفة مطالعة رواية Ascoo لمدة 20 دقيقة مساوية لستة فرنكات .

من ناحية أخرى فبركة Serpea التى تمثل المؤلفين الاربعة لن تتوانى عن المطالبة بحقوق التأليف التى سيكون المطالع مضطرا الى دفعها . ومهما كان هذا المقابل زهيدا فهو سينضاف الى ثمن النقل بواسطة المواصلات اللاسلكية. وبذلك يدفع المطالع مقابل التمكن من ثلاثة اتصالات سلكية ما يساوى ثمـن احد كتب الجيب . وفى الحقيقة فمن الصعب مقارنة رواية تقليدية فى شكل كتاب بأخرى معلوماتية تجمع بين الادب والتسلية .

أما فى الولايات المتحدة الامريكية فالمعلومانية الادبية لم تفرض وجودها بعد . وعلى العكس من ذلك فان الميكرو راتبات قد تفاقمت بشكل مهول . وهذا ما يجعل أدبا مشابها فى خصائصه للرواية المعلوماتية ينمو متكيفا مع الآلة التى تنقله . وبذلك نجد أن أحسن مبيعات هذا الصنف الادبى متمثلة فى أربع روايات بوليسية هى : Zork, Deadline, the Witness, Suspended وقد عملت على ترويجها شركة Imfocom فى شكل اسطوانات لدينية .

ومما يمتاز به هذا الصنف من الادب أنه لا يحمل رسوما أو رموزا ضوئية أو صوتية زيادة على الكتابة فالشاشة لا تعرض الا صفحات من الكتابة المتراصة المتتالية كصفحات الكتاب . ولكن القارىء هو الذى يقوم بالبحث البوليسى ففى امكانه أن يسأل شخصيات الرواية بالشكل الذى يحلو له . وله أن يقف منها بحسب ما يمليه عليه مزاجه وباختصار فالقارىء هو الذى يصنع روايته . وهذا الصنف من الادب المسجل على الاسطوانات يأتى فى مرحلة وسطى بين التسلية والادب . ولكن ذلك لم يمنعه من تسجيل نجاح كبير على الضفة الاخرى من المحيط الاطلسى . وأكيد أنه سيغزو أوروبا قريبا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يكون من السابق لأوانه التكهن من الآن بما قد تصبح عليه الرواية المعلوماتية . هل سيكون ثمنها فوق متناول القارىء ؟ هل سيكون القارىء قابلا لدفع مقابل ربع ساعة مطالعة ؟ هل سيختار القارىء « الكتب ـ الاسطوانة » لمجرد أنه يملك ميكرو راتبة ؟ أم أن القارىء سيبقى وفيا للرواية ـ الكتاب التى يمكنه أن يطالعها متمددا فى فراشه شاغلا فمه بقطع الشكولاته ، كما يمكنه أن يضعها جانبا أو فى جيبه عندما يعن له أن يخرج للنزهة لكى يخرجها عندما يحلو له ذلك ؟ هل سيكون هذا الصنف التعبيرى الجديد مجرد موضة أم أنه سيوسع من أفقنا الثقافى ؟

سيأتى الجواب عن ذلك حتما عندما تغطى شبكة النهائيات الالكترونية « ميني تال » كامل التراب الفرنسى ، وعندما يتم وضع راتبة فى كل مدرسة أو فى كل منزل من جملة ثلاثة منازل .

أحمد ممو

هـــوامـش :

(1) عرب هذا النص عن الأصل الفرنسى المنشورة بمجلة « Sciencc et Vie » عدد أفريل 1984 الذى يحمل رقم 779 . من الصفحة 130 الى الصفحة 134. مما تجدر ملاحظته أن النص الفرنسى يحمل صـورة لشخص يستعمل النهائى « ميني تال » بالاضافة الى صورة لصفحتين من الشاشة « الفيديو تاكس » تمتزج فيهما الكتابة بالصـورة والرسـوم البيـانية مع النص التوضيحى وقد آثرنا عدم نقل هذه الصور الثلاثة لمحدودية الامكانيات الفتوغرافية لمجلة « قصص » .

(2) أعترضت المعرب صعوبات لغوية لترجمة كلمات من نوع :
معلوماتية (Télématique) ، خـزن (Saisie) ، راتبـة (Ordinateur) ، برنامـج (Programme) ، نهـائى اتصـال ألكتـرونى (Terminal) ، صفحـات الشـاشة (Image-écran) ، وهى كلمـات خـاصة بتقنيـة المعلوماتية دخلت لغة الاستعمال حديثا . الرجاء من القارىء التفطن الى معناها الوظيفى والعمل على إيجاد مقابل أنسب لها فى العربية .

(3) يتضح من النص المعرب أن الرواية المعلوماتية ليست سوى مرحلة من « الرواية المخبرية » التى يكون فيها للجانب الشكلى وللبناء الهيكلى الأهمية الأساسية فى تشكلها النهائى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وجـه فى زحـام المـدينة

« عندما يبدو الوجه فى اليقظة أكثر اشراقا وتفاؤلا ، فانه لا يكون الا مجرد حلم كاذب ، يحاول أن يدغدغ الذاكرة دون أن يستجلى أعماقها ، وجهك فى اليقظة مشرق لكنه يتوغل فى أعماق انوحدة ، يبدو هكذا ، لكنك عندما يبدأ الليل ينشر خيوطه فانك تقف وجها لوجه مع مأساتك المتأصلة ، أنت هكذا دائما ، يتحرك السرير بعصبية قرفا من وجودك عليه ، لكنـك تستمـر فى التقلب يمنة ويسرة ألف مرة فى الساعة » .

قالت حسناء ذلك وأغمضت عينيها الماسيتين . كانت بقية دموع لا تزال تختزن فى المحاجر . شدت على يدى بحرارة وتابعت :

لماذا أنت متجمد كالثلج ؟

كل شىء فيك يرتعش ! أنت مريض ؟

مسحة من صفرة الموت تملأ وجهك ألا تحس بها ؟

تراكمت الاسئلة كانها شلال متدفق يحمل معه سيلا غاضبا من تداخلات حادة ، غامضة مبهمة ، كانت الاشياء بالنسبة إلي مجرد ضباب ، لم أستطـع النفاذ الى ما بعدها ، تجمدت الكلمات فى عـروقى ، أحسست أن أفعوانـا تتداخل فيه الالوان الغامقة والفاتحة يحاصرنى ، يتطاول الافعوان ، وينشطر تارة الى مجموعة هائلة تسد علي كل المنافذ ، وأخرج من جيبى منديلا ستجمع به قطرات من العرق تناثرت فوق جبهتى ، ابتل المنديل كله وما زال العـرق ينضح ، ويتحول جسدى الى بركة تستجمع كل سيلادته .

ـ البارحة عند مفترق طريق الجامعة ، كانت تمشى وحيدة ، كل ما فيهـا باهت ، ومطر يتساقط بغزارة لم يشهد له مثيل قبل تسع سنوات ، تساقط المطـ ، تبللت الشوارع ، حفرت أخاديد واسعة وسط الشارع ، رغم ذلك

فتحت صدرها للمطر ، نزعت معطفها المطرى ، حلت شعرها ، أرخته ضفيرة فوق كتفيها .

ـ ينفذ ماء المطر الى الاعماق .

قالت : هذه أحلى الساعات ، رائع أن يسافر الفرد فى المطر بجمع أصداف العـالم .

هل تعرفها يا صديقى ؟ جميلة ! ألا تعرف جميلة ؟

تداخلت الوجوه الكثيرة التى رأيتها فى حياتى ، وحاولت استحضار أكبر عدد من الجميلات ، لكنى فى تلك اللحظة عجزت عن التعرف على وجه جميلة ، حيث الزحام من جهة ، والافعوان من جهة ، وخيوط المطـر من جهة أخرى ، وبدوت كالمشلـول ، وبـدت ذاكـرتى غيـر قـادرة على استحضـار أقـرب الاشخاص إلي .

الشوارع التى أقطعها كل يوم عشرات المرات نسيت اسمى ونسيتهـا ، باتت باهتة ، ثمة اشارات مرور جديـدة ، وضعهـا البـوليس فى بدايـات الشـوارع .

أحاول استحضار أسماء الشوارع لكن عبثا ، أقطع المسافات التى يمكن أن تقطع كل يوم .

تغص الشوارع بالمارة . أحاول أن أدقق جيدا علنى اكتشف وجها أعرفه فى الزحام ، كم أحلم أن أكتشفه لأطارده أينما يذهب لأشد على يديه لأقبله بلهفة التائه الضائع بين مقاهى المدينة ، وأزقتها وخماراتها .

تغيب الوجوه الاليفة كلها ، يضيع وقتى عبثا فى محاولة القبض على هذا الوجه ، وأحاول أن أبحث عن وجهى المتنائى فى الوحدة ، لكنى أفشـل فى ايجـاده .

وحدها الحانات والمقاهى والارصفة تعرف وجهى ، والوجوه التى لا يمكن أن تمحى من ذاكرتى هى وجوه عمال المقاهى .

ـ هل تدعونى الى كأس من البيرة ؟

تحرك فى داخلى احساس بالفرح ، جميل أن يشرب مغترب كاسا من البيرة مع واحدة كحسناء .

تدس يدى الى أعماق جيوبى المهترئة متلهفة لايجاد المبلغ المطلوب ، أتذكر أن بقية قليلة لا تزال معى ، لكنى لست متأكدا أنها كافية لقد حين من البيرة فى مقهى من الدرجة العادية فكيف فى مقهى « عمراوه » ذى الطابع الخاص ، والذى اعتادت حسناء الدخول اليه دائما .

ـ ماذا قلت ؟ حكما أنت موافق .

شدت يدى ، ضغطت عليها بقوة .

كانت قطعة رهيفة من الشفافية ، ورغم ابتسامتها الدافئة ، أحسست فجأة بفيصل حاد بيننا ، فيصل عمره ألف سنة من الاغتراب ، كان وجهها عاديا ، حاولت أن أقنع نفسى بألفته ، لكنى عبثا حاولت ، فلا يزال الوجه غريبا ، العينان والانف والحاجب ، والشعر الفاحم ، كل ما فيها استحال فى تلك اللحظة الى رماد ، بهتت ابتسامتها ، غارت عيناها الى الداخل .. كان وجهها ينبض بأشياء غريبة مجهولة لم استطع اكتشافها .

على الطريق الايمن من الشارع تتراص مجموعة من الحوانيت ، ثياب النساء تصرخ بألوانها ، صوت موسيقى يأتى من الداخل ، يمدد ذراعيه الناعمتين فى محاولة ناجحة لاختطاف أقرب امرأة ، تتجمع النسوة ، يصبح الثوب حلما :

ـ يا إلاهى كم هو رائع هذا الثوب ؟

ـ متى يأتى آخر الشهر لتقبض المرتب ؟

ـ كالقمر أنت تظهرين به !

ـ من أجود أقمشة لندن .

ـ تتداخل الاصوات وتتعالى ثم تهدأ قليلا ، ثم تعود الى التعيق من جديد ، ويمتصها الصوت الموسيقى .

تدير امرأة شابة مؤخرتها لزميلاتها .

ـ ما شاء الله عروس ! يأتي صوت التاجر ذئبيا ماكـرا ، تنتعش المـرأة العروس ، ويأتيها احساس بأن الشمس لا تطلع الا اكراما لعينيها الجميلتين .

ـ امرأة في الزاوية تستعرض ماركات العطور المصففة بانتظام على الرفوف، يتقدم الذئب واثقا .

وبحركة ديناميكية يرتب شعرات نافرة ، يعيدها الى موضعها ، يهمس في أذن المرأة : نسهر معا الليلة يا سيدتي ما رأيك ؟ زوجتي غائبة ، في البيت أو في (الريفيرا) ، لك الخيار ، كل شيء جـاهز ، شقـة فاخـرة ، فيديـو وأسطوانات ألا تحبين الموسيقى ؟ سيارتي الـ (بي إيم ـ دوبل في) الرمادية هناك ، انظري إنها في الطرف الثاني .

ـ الثـامنة يـا حلـوتي نحن في الانتظار ، أرجو أن تقبـلي هذه الهـدية المتواضعة ، زجاجة عطر باريسية لعينيك الجميلتين .

قبضت السيدة الفاضلة الزجاجة بيد من نار ، همست قائلـة : الثـامنة بجوار السيارة موعدنا .

عاد المطر الى السقوط ثانية ، تكورت المدينة على نفسها ، تشكـل ضبـاب قاتم ، سد منافذ المدينة ، وسرعان ما أغلقت المدينة بواباتها أمام كل القادمين الجدد ، تحلق الكل حول أسوار المدينة في انتظار موسم جديد .

محمد عبد الرحمان يونس

المغرب : 20 ـ 2 ـ 1984

الـــدب الصغيـــر

بلغت طبقة الثلج ارتفاع عشرين سنتيمترا تقريبا عندما دوت فى البيت المقابل صرخة ارتعش لها بياض المشهد ... فى نفس السيد س. دوت كذلك الصرخة ، وتردد صداها فى جسمه وفى ذهنه ، حتى تجمعـت فى ذاكـرته صورة امرأة تعيش فى الوحدة وفى الوحشة مع دبها الصغيـر الصـامت ... عاوده الوخز المؤلم بين ضلعتين سائبتين يسريين ، لكنه على غير عـادته لم يتأوه ولم يمتعض . وعلى غير عادته مسح غشاوة بخار أنفاسه بأنامل متلهفة وألصق أنفه فجبينه بباور النافذة البارد ليرسل نظره فى كـل اتجـاه . لم يكشف شيئا ! الشارع هامد ، والحى جامد ، وندف الثلج تتساقط متراقصة كعرائس فى فراش الفحش .

ـ صوتها ! إنه صوتها ! وإن لم يكن صوتها فليس فى المدينة من له مثل هذا الصوت الصريرى ... غيرها ! إنه صوتها . وإن لم يسمعه غيرى .

لم يصبر لحظة أخرى . دس رجليه وساقيه فى جـزمتين عاليتين . تدثـر بمعطف أسود والتفع بحرام أبيض . آنسه الصوف العبق وزاده إصرارا ، فخرج مسرعا رغم لسعات حامضة تخرب جنبه .

مشى فى الثلج شبحا أخرق .لكن جيرانه لم يهتموا به فى تلك العشية لانغماسهم فى دفء بيوتهم متلذذين ذلك الحلم القطبى الذى فاجأهم .

مشى فى الثلج وهو يلعن جارته العجوز الخرقاء التى لم تغلق باب بيتهـا مرة واحدة منذ هجرها زوجها فى الشتاء الماضى .

... وجدها فى فراشها ممددة ساكنة ساكتة تحت عدة أغطية قشيبة . لم تلتفت اليه الا عندما انحنى على وجهها يعاين بريق عينيها . كان وجهها أبيض بياض شعرها . وكان سواد عينيها وهاجا .

قـالت :

ـ كلا ! لم أمت . ما زالت جمرة فى أحشائى تذكى أملى .

قـال :

ـ فلم صرخت ؟

قـالت :

ـ تطلعت من النافذة الى الشارع الذى فقد ألـوانه . حسبت أن العمى سد بصرى . أنت تعرف أنى أتهيب العمى ، قبل أن يعود رجلى . او عميت... ربما لن يعود . أو لن أراه . أو لن أصبر يوما آخر . أو أموت .

قـال :

ـ أفزعنى صراخك رغم البرد .

كان دبها الصغير ممددا فوق فراشها الى جانب الوسادة . أخـرجت يـدا نحيلة وجذبته فحصلته فى حضنها واندست معه تحت الاغطية الثقيلة ...

قـال السيـد س. :

ـ كنت أعلم أنها ستسافر بعد يومين بحثا عن الالوان حيث تقدر أنهـا تنسى غياب زوجها فى انتظار عودته . لكنى لم أكن أعلم الى أين سترحـل . لذلك لم أشأ اخبارها بأن زوجها أوصانى بأن أكتم عنها هجرته اياهـا بـلا رجـوع .

وقـال كـذلك السيـد س. :

ـ كنت أغار من دبها أكثر من غيرتى من تعنت كبريائها وتعلقه بالمستحيل. زوجها لن يعود . أجل ! لكن دبها الصغير هو محط اهتمامها الفكرى والحسى وكذلك الشبقى . أما أنا فلم أكن أعرف إن كنت أحبها أما أو أختا أو خليلة. لذلك خرجت من بيتها ساكتا . واشتد الوخز بجنبى ...

... بعد أسبوع واحد ، عادت الالوان الى معمـار المدينة ونشطت حـركة الشوارع من جديد . لكن السيد س. لم يخرج من بيته . كان يخاف أن يرى جارته تغادر الحي فلا يعرف بماذا يودعها .

ودعته هى برسالة حملها اليه رئيس قسم الشرطة . قال الشرطى :

ـ لم نعد نرى العجوز واقفة فى نافذة بيتها . فدخلنا بيتها نستطلع أمرها. لكننا لم نجدها رغم جميع التفتيشات . وعثرنا على هذه الـرسالة المـوجهة اليك . فنرجو أن تعلمنا بفحواها .

لم يكن فى الرسالة سوى كلمات ثلاث : « احرس دبى وانسنى » .

قـال السيـد س. :

ـ سأذهب الى بيتها لأبحث عن الدب .

ـ قـال الشـرطى :

ـ الباب صار مغلقا مختوما . والدب كذلك اختفى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قـال السيـد س. :

ـ لم يبق الا الوخز يحفر جنبى . فالذى يبقى هو المتألم . فبـأى بلسـم أتلهـى ؟

خرج الشرطى دون أن يحاول استفسار السيد س. عن معنى هذيانه الذى تواصل حتى الربيع .

سميـر العيـادي

تونس فى : 10 جانفى 1985

قـصـة : بوريس ماسيلياف
تعـريب : مصطفى الفـارسى

أولمبيـــا العتيقـــة

حافلات النقل التابعة لديوان السياحة «اينتورست» لا تظهر بنهجنا قط . هى تمر مباشرة فى الشارع الواسع والمستقيم جدا والذى امنت وطأته الافنية الهادئة المعروفة باسم «بولينوف» عندما اخترق الحى القديم .

كثيرا ما تتوقف السيارات أمام واجهات الدكاكين الزجاجية التى لا نهاية لها والتى تكاد تشتعل بأنوار «النيون» فينزل منها السياح وقـد انتفخـت صدورهم وقارا وخيلاء لترويض سيقانهم . واذا عيون آلات التصوير تلامس كالعادة واجهات العمارات الشامخة تلعقها لعقا . واذا صوت الدليل المتعجل فى رتابة ودون أى ورقة شعور يقدم أرقاما تتصل بأمتار مربعة من الزجاج وأطنان من الاسمنت المقوى وأمتار مكعبة من المساحات ... ثم تنطلق الحافلات متابعة مسيرتها من جديد .

وعندما تكون نافذة غرفتى مفتوحة استمع الى لهاث تلك الحافـلات والى حفيف أبوابها والى لغط الدليل الرتيب الذى لا لون فيه ولا طعم . فمنـزلى يقع وراء الشارع الجديد مباشرة فى ظهر العمارات حديثة البناء المتـراكـم بعضها على بعض والتى أنشئت بسرعة عجيبة . وعندما تم انجاز الشـارع الكبير محقت المنازل الخشبية محقا وأقيمت مكانها مبان من القطع الجاهزة مقدما ونجت دارنا من الكارثة بمعجزة وقد يرجع السبب فى ذلك الى كونها من حجر وذات طابقين يساويان ولا شك خمسة مما يبنى فى أيامنا .

كنا نسكن الطابق العلوى فى ارفع نقطة من المبنى حيث تبرز الشرفة فى نتوء يدعو الى الاستغراب . وكنا نصل الى منزلنا من ناحية الفناء بواسطـة درج ضيق ذى عتبات بالية منتهاه السقف الاعلى للبيت . هناك سطحة بها باب مغلف بحشية وعلى جانب اطاره يوجد زر جرس وتحت الزر مباشـرة سبعة اسماء .

وأذكر أنى عندما كنتُ ارتاد المدرسة أرانا استاذ التاريخ رسما هندسيا لمدينة موسكو يرجع عهده الى القرن الثامن وعشرت يومها على منـزلنا عـلى الرسم • احترق المنزل اثناء الحريق المشهور الذى نشب بالمدينة لكن أسسه بقيت راسخة • وبعد الدرس نزلنا الى الدهليز لنشم الجدران فاذا هى تعبق فعلا برائحة بارود سنة 1812 .

وفى ايام الثورة لجأ الى المنزل بعض التلاميذ الضباط وكانوا من الخارج يرمونهم بقنابل المدافع دون أن يصيبوا الهدف اذ كانت القذائف تتفرقع على مقربة وما زالت واجهة المبنى مرصعة حتى الآن بآثار الشظايا فكأن وجه منزلنا المعتم القطوب مبرود بالجدرى •

وعندما اندلعت الحرب الاهلية سد المكترون المدخل الرئيسى ومنذ ذلـك العهد ونحن نستعمل الباب الخلفى المعد للخدمة . وهو باب ضيق ومضجـر الى حد أنى أشعر دائما بأننا ندخل الى منزلنا بمشقة كبيرة عوض أن ندخلها بسهولة تامة كما هو مفروض . من وراء جدار غرفتى نقرات على آلة رقن لا تنفك فى أذنى صباح مساء • لا أحد فى بيتنا يؤذيه ذلك الدوى • فالعمل هو العمل • وعندما يرن جرس لا ينتظره أحد فالمكترى الذى يكون أقرب الى الباب من غيره يفتح ويقول دون أى تردد :

ـ تريد الراقنة ؟ الباب الثانى على يسارك •

ويختفى الزائر فورا وراء الباب المشار اليه • واذا حدث لاى واحد منا أن يتباطأ قليلا فى المعبر فانه لا يمكن أن يفوته قط الحوار التالى :

ـ هل بامكان آلتك أن تأخذ خمس نسخ ؟

ـ تتحمل سبع نسخ ••• آلتى خارقة للعادة •• فهى « اولامبيا » مسنة كانت تحب الفيلم الايطالى «روما فى الحادية عشرة» أكثر من أى فيلـم فى الدنيا فلقد شاهدته ثمانى وعشرين مرة وحفظته عن ظهر قلب .

ـ آوه •• انك بمثابة مدفع رشاش •

ـ قل : انى مدفع مسن يا سيدى •

وتسيل الدموع على خديها وتشعر بأنها مضطربة جدا وخجلانة لانها الوحيدة فى القاعة تبكى كالمعتوهة ، فتأخذ منديلا صغيرا مطويا على شكل مكور وتجفف عينيها وهى تقضم شفتيها بشدة بينما تنهمر الدموع من عينيها باستمرار وتعشى بصرها وتغطى بالبخار صفحة بلور نظاراتها فتنزعها لكن الفيلم لا ينتظرها بل يتابع سيره لا يعبأ بها . فلا يزيدها ذلك الا بكاء فى نظاراتها .

كان موضوع الفيلم متصلا بالراقنات وبالتالى يحوم حولها هى بالذات .

ـ سبع نسخ ... آلتى ياسيدى «اولامبيا» مسنة .

قالت ذلك بأنفة حزينة . كانت فخورة بآلتها وكانت تشعر بأنها هى المسنة لا آلتها . فكل السكان كانوا يسمونها «الاولمبيا المسنة» وراء ظهرها بطبيعة الحال .

★ ★ ★

ـ كاتيا انها الحرب « هورا » ... الحرب ضد الالمان .

كنت أصيح وأنا أذيع الخبر . وكنت فى الثالثة عشرة من عمرى ... والى حد الآن لم أسامح نفسى وأغفر لها تلك الفرحة العارمة والغبية فى نفس الوقت . كنت يومها أضرب برجلى فى اضطراب قطع البلاط المسودة التى كانت الساحة مفروشة بها فتشرئب أعناق المكترين من النوافذ وتتجمد نظراتهم المنصبة على وقد اكفهرت الوجوه يعلوها شحوب كبير لكنى أتابع الصياح فى جنون ... صحت حتى كدت أنفلق لان نافذتها ظلت موصدة .

ـ كاتيا ... انهم قنبلوا «كييف» .

وانفتحت النافذة وخرج منها نصف جسم كاتيا الفوقانى . واذ لم تكن ترتدى فستانا يسترها أخفت كتفيها العاريتين براحتيها .

ـ أنت أبله يا ولد ... أبله تماما .. أتسمع ؟

فسكت وقد تملكنى السخط والاستياء فقد كنت أحب كاتيا فى السر بينما كانت هى تمعن فى اعتبارى مجرد طفل .

كانت الليلة البارحة مدعوة لحفل آخر الدروس بالمدرسة وقبلوها هنـاك للمرة الاولى فى حياتها ٠

٠٠٠ وبعد خمسة عشر يوما التحق خريجو المدرسة بجبهة القتال ٠ تقـدم الصف الهش فى تؤدة وخرج من فناء المدرسة يحف به الخلائق من الجانبين فى شكل خطين متوازيين ٠ وكان الاطفال يصيحون وهم يحركون لافتـاتهم بينما يخيم على الكهول صمت مطبق عميق ٠ واندفع الصف فى الشارع ثـم وصل الى «ارباط» حى موسكو العتيق ، وسار فى اتجاه ساحة «سمولانسك» وكان الاهل والاصدقاء يتبعون الموكب على الطريق فى حين كانت الفتيـات وقد ارتدين أثواب الاحد واحتذين أجمل الاحذية يتكردحن على بلاط الطريق فى خبب غير رتيب ٠ وعندما وصلت الجموع الى منتهى ساحة «آرباط» بدأ الاولياء يفرتقعون شيئا فشيئا ثم تبعهم الاصدقاء لكـن البنـات ابين الا أن يتبعن الصف الى النهاية حتى محطة «كياف» للقطار بل حتى السياج الذى لا يسمح لاى أحد بتجاوزه قطعا ٠ وبقين أمام السياج ساكتات مهدودات الى أن ركب الاطفال القطار ولم يبق منهم على الرصيف أحد ٠

ولم أستطع غداة ذلك اليوم أن أعرف كاتيا فقد تغيرت أحوالها تمـامـا فأصبح صوتها هادئا وكلامها مقتضبا وابتسامتها عابرة وسحنتها عمـومـا وقورة تبعث على الاحترام ٠ لم تعد رفيقاتها عندما يجتمعن بها يضحكن فى صخب كما لم يعدن يصعدن الدرج ركضا كالجياد الهـائجـة ٠ ولـم تعـد أصواتهن تملأ الساحة صدى مصما للآذان ٠ فكرت يومها وفى نفسى جذل خبيث انهن كن يودعن أحباءهن لكنى أعرف الآن أنهن فى ذلك اليوم كن يودعن شبابهن. فقد اعتزلت حياتهن مع انصراف صف التلاميذ الهش الى محطة القطار بالامس وارتجت تطع البلاط تحت قدميها فى ساحة « ارباط « لكن حراسا واجمى الوجوه أوصدوا فى وجهها باب محطة كياف الثقيل ذا القضبان أوصدوه وصدوها عن الاطفال ٠٠٠ بصورة فاصمة قاطعة لا رحمة فيها ٠

٠٠٠ فى ذلك الخريف التحقت كاتيا بالشباب ٠ رفضوا طويلا أن يسمحوا لها بالتجنيد لانها لم تكن بلغت بعد الثامنة عشرة من عمرها ٠ لكنها تعنتت وكسبت الرهان ٠ وفى الصباح طرقت باب منزلنا وقالت وهى تمد يدها الى كما لو كانت تودع أحد الكهول :

ـ الى اللقاء ... وحذار أن تعنف الصغار .

وطفقت النساء والدمع ينهمر من عيونهن يقبلنها طـويلا ويدسسـن فى جيبها قطعا من الشوكولاطا وهى تبتسم وتلوك كلامها فى اضطراب فى فمها بينما كانت عيناها جامدتين · أما أنا فكنت فى زاويتى صامتا واجما · واعتقد اننى فى ذلك اليوم بالذات بدأت أفهم ماذا تعنى الحرب · ولقد لعبت سـن كاتيا وهى فى السابعة عشرة من عمرها وكذلك هشاشتها دورا سلبيا فى حياتها وجلبت لها المشاكل · من ذلك انها لم تستطع أن تلتحق فى الجيش لا بالاستكشاف ولا بالمواصلات ولا حتى بالمصالح الصحية · فقد وجهوها الى قيادة الجيش وسلموها عوضا عن المدفع الرشاش «أندروود» قديما جدا لا يغنى ولا يسمن من جوع ـ عصابات شتوية لربلات السيقان ، اثنا عشر ألفا وستمائة وثلاثة وأربعون زوجا . قمصان من قياس واحد ومن قيـاس اثنين كذا ·· هل فهمت يا كاتيا ؟

كان أول رئيس لها بالجيش الملازم العقيد «كلوخوف» المكلف بالوكـالة فهو الذى تولى تدريبها على الرقن وحفظ الدفاتر وكشف لها عن أسرار حياة الجيش وأغوارها · كان يدافع عنها ويثقفها ويحميها فى نفس الوقت وكان دائما يقول :

ـ اذا حدث أن شاكسك أحد ·· أخبرينى بذلك حالا وسترين ما أفعل ·

وكانت كاتيا تطاطىء رأسها وتغض من طرفها استحياء وخجلا ·

لم يقلق راحتها أو «يشاكسها» أحد الى الآن وكانت معلوماتها النظرية فى الموضوع ضعيفة وبسيطة · كانت تقطن مع النساء اللاتى كن يكبرنها سنا · وكن هن أيضا يرعينها ويحذرنها ويلقين دروسا عـلى مسمعها · مـن هـذا القبيل :

ـ احذرى بالخصوص ذوى الشوارب الطويلة · فهم حاذقون فى الجـرى وراء النساء ·· من الخصرين الى الرجلين · لاتخشيهـم ·· وأحسـن مـا تعاقبينهم به أن تشمرى عن ساعد الجد وتلطميهم من المرة الاولى ·

كانت كاتيا تستمع اليهن بانتباه لكن لم يكن هناك من تلطمه · فالشبان كانوا قلة فى مركز القيادة بينما كان الكهول والشيوخ يرفقن بها ويوفرن لها

الحلويات مقابل ما تقدمه لهم من خدمة الرتق والكى وغير ذلك مما يجهله الرجال . وحتى القائد الأعلى للجيش الذى كان يبدو منهوكا من قلة النوم والذى كان يخشى عبسه حاجبيه كان من حوله أكثر من ويل القنابل والماحقات جميعها فانه أوقفها ذات يوم فى الطريق وبادرها بالسؤال :

قال : ما عمرك ؟

فأجابت مذعورة : انا متطوعة فى الجيش ٠

فقال صافيلياف متعجبا فى ضحكة : متطوعة ٠٠؟

فانفصل عن السيارة ضابط قائم بالخدمة فى ثوب أنيق وهو يصيح : فى الخدمة يا حضرة الرفيق القائد الاعلى ٠ فى الخدمة ٠

ودار بينهما هذا الحوار :

ـ انت لم تلتهم بعد كل الطرد ٠؟

ـ لم أمس الصندوق بعد يا حضرة الرفيق القائد ٠٠ لم آخذ منه شيئا ٠

ـ اعطه اذن لهذه الطفلة ٠

ـ حالا ؟

ـ دون شك ٠

ـ امرك يا حضرة القائد ٠ حالا ٠

واندفع الضابط لتوه داخل الملجا «الايصبا» وهو يكاد يسقط من اثر الجليد المزلاق ٠٠ كادت تزل به القدم فعلا بساقيه المغلفتين بجلد ناعم رقيق ٠

والح القائد الاعلى للجيش فى السؤال :

ـ لكن على أية حال ٠٠ خبرينى ما سنك ٠

فأجابت كاتيا مرتجفة بكذبة مفضوحة : «تسعة عشر عاما» واحمرت وجنتاها ٠

فأجاب القائد الاعلى فى لهجة اللائم : «ليس من اللائق أن تكذبى هكذا امام رجل مسن» ٠

فقالت كاتيا فى تردد : «أنا أكذبك • أو قل بمقدار •• على كل حال» •

فقال القائد : اذن ... ما الحقيقة ؟

فأجابت فى صدق : عمرى سبعة عشر عاما وربع العام •

فقال القائد متنهدا وهو يركب سيارته : «نعم •• نعم •• هكذا تكون الجنود البواسل» • فراياسنا والا فلا •

وخرج الضابط القائم بخدمة الجيش من الملجأ • فى صخب كبير وهو يحمل صندوقا من «الكونطربلاكى» سلمه الى كاتيا وقفل راجعا وهو فاقد توازنه كالعادة بسبب الجليد • وامسكت كاتيا بالصندوق فى غير ثبات وكأنها تحتضنه احتضانا • وكانت عيناها تتبعان الضابط المكلف بالخدمة بشىء من الخوف لانه كان من ذوى الشوارب الطويلة • كان بالعلبة حبات من المشمش المجفف لذلك جلس النساء ليلتها حول المائدة ليحتسين كؤوسا من الشاى فى ملجئهن المحفور تحت سطح الارض • وكانت دموع كاتيا تساقط على المشمش فيمتزج المالح بالحلو : وفى الاثناء اصابت قذيفة طائشة السيارة فمزقتها اربا بمن فيها ••• هكذا قضى القائد الاعلى للجيش والضابط الوسيم القائم بالخدمة •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ سراويل داخلية من الصوف الخفيف •• لماذا توردت وجنتاك هكذا يا كاتيا ؟ عندما تنزل درجة الحرارة الى اربعين تحت الصفر ••• السراويل الصوفية هى التى تنجينا من الهلاك •• الا تعرفين ذلك ؟

شعرت كاتيا أن يدا ثقيلة وقعت على كتفها • وكانت فى البداية ترزح تحت عبئها ثم بمرور الزمن فهمت أن تلك اليد كانت بالنسبة اليها رحيمة عطوفا . وسهل ذلك الاكتشاف على كاتيا سبل العيش فلم تعد تخشى شيئا وعندما لم يكن أمامها عمل عاجل اصبحت تغنى فى الليل فى حبور • وفى نفس الوقت تبدلت طباع الملازم العقيد «كلوخوف» فجأة فأصبح يرتدى قمصانا ذات رقبات بيضاء ناصعة كان الضباط في مركز القيادة يغبطونه بها •

سألها :

ـ لماذا توردت وجنتاك يا كاتيا ؟

ولم يكن بمقدور كاتيا ان تفسر لماذا احمر وجهها · فكل شيء كان يقذف بالدم محياها : صيحة عالية او نظرة ملحاحة والملح الداعرة شيئا ما والسباب والتجديف فى افواه السائقين وحتى جسدها ذاته وهو ما كان من المفروض ان تجعله خدمة الجيش اكثر صلابة وخشونة ·

وصاحت نادلة مطعم ضباط الفرقة وهى ترتمى فى فراشها :

ـ ما أجمل نهديك يا كاتيا ··· أنا أعرف من يصبح معتوها بسبب هذين النهدين الظريفين. وعندما سمعت كاتيا هذا الكلام تورد وجهها واستشاطت غضبا ودست رأسها تحت الدثار · بينما تبدأ مدافع الـ «د·س·أ·» نباحها تضع كاتيا « اندروودها » فى غمده وتنزل الى الملجأ فى الخندق وتنتظر فى صبر ان يتوقف القذف ·

فقد استسلمت للامر المفضى راضية بعملها المتواضع فى الجيش : اذ لا بد لتحقيق النصر ممن يتولى عمليات الحساب المتصلة بعصابات الجلد التى تغطى ربلات السيقان · لابد من شخص يضرب على الآلة الراقنة فى جنون قائمات المواد والادوات والاضبارات والتفاصيل والقائمات والتقارير · كانت أمام آلتها الراقنة منهمكة فى شغلها ذاك عندما اقتحم باب غرفتها الصغيرة فى عنف قائد شاب اتى توا من خطوط النار الامامية مطالبا فى صخب شديد بأن يحضروا له حالا أثواب تعتمة لجنوده . سائلا فى تعجب :

ـ ما هذا المدفع الرشاش ·

فأجابه «كلوخوف» مبتسما فى هدوء :

ـ طراز 1924 ·

فى تلك الليلة زارهم القائد الشاب وهو يحمل معه «شوكولاطا» غنمها من العدو وقارورة من نوع رفيع · وشرب النساء الكحول وهن يتسلين بالملح المغربة فى الدعارة · اكتفت كاتيا الخجولة بقضم الشوكولاطا فى زاويتها · وتقدم منها القائد وعلى صدره وسام لماع لعله أحرزه مؤخرا وقال فى تيه وهو يشخص فيها بنظرات ثاقبة :

ـ لا ·· لا ·· كل هذه الاوراق يا صغيرتى كاتيا ليست لمن هم فى مستواك ··· حقا ·· هذا لا يليق بك ·

قال ذلك وهو يفرك سيور سوقائه · ثم اردف :

ـ هذه الاشياء لا يمكن أن تمثل ذكريات بالنسبة اليك عندما تنتهى الحرب بينما عندنا نحن فى فريق الاستكشاف أنا أضمن لك الحصول على وسام فى ظرف اسبوع على أكثر تقدير ·

لو عرض عليها القائد الشاب ذلك قبل شهرين لتبعته دون تردد مع العلم أن كاتيا كانت تعرف جيدا انها لن تفلت من هاتين اليدين القويتين الثابتتين· أما الآن فانها عندما تفكر فى ذلك اليوم تشعر بقرص طفيف فى قبلها لانها تعرف جيدا أنه كان يكفيها أن ترنو بلحظ معبر الى القائد لتسلكه برمته من قمة صلعته الى أسفل نقطة فى سوقائه المصنوعة من جلد الجدى ·

كان «كلوخوف» يقول لها كلما طالبت بنقلها الى الخطوط الامامية :

ـ ان تحاربى ورجلاك حافيتان فذاك أمر لا يقبله عقل ولا منطق سليم. وانها تعرف الآن كم من اياد مبتورة ومن عيون جوعانة ومن ليال دون رقاد .. كم من هذه المآسى خلفها وراءه كل واحد من هؤلاء الجنود · وانتهت الى التسليم بانها فى المكان اللائق بها هنا ··· حيث كان يجب أن تكون ·

كان النساء يتنادرن ويتغامزن برموش قاتلة لكن لم يفتهن من أحوال كاتيا تلك الوزة البلهاء . ومن المحتمل أن يكن غفلن عن مراقبتها للحظات لان القائد استطاع فى نهاية الامر ان يختلى بها فى زاوية ظلماء · لم تفهم كاتيا ما كانت تعنيه همساته المتأججة . كانت منشغلة عن ذلك بالضغط على صدرها براحتيها وبتحريك رأسها يمنة ويسره · وكانت شفتا الرجل تبحثان فى نهم شديد عن وجنتيها وعن رقبتها بينما كانت يداه تدلفان تحت ذراعي كاتيا ثم تحاصران نهديها وتؤسرانهما فى آخر الامر · وكادت كاتيا تصرخ لكنها استطاعت ان تتخلص من قبضة الرجل فى سكون ودون أن يسيطر عليها الغضب والحق يقال انه استطاع بدوره ان يستشكف جسدها جملة وتفصيلا· لكن عندما طفق يحرر ازرار ذراعتها من عرواتها تملصت من ضمته وانتزعت نفسها فارة من حضنه ·

لم تنم فى تلك الليلة . كانت مضطربة فى سريرها تلقى بغطائها على الارض وتعذب وسادتها بصورة جعلتها تشعر بالالم فى يديها كانت تؤنب نفسها وتتحسر على ما بدر منها :

«يا لك من حمقاء .. مم كنت تخافين .. أسألك الآن .. ما الذى كنت تخشينه ؟ لكم انت بلهاء يا كاتيا المسكينة .. »

وفى صباح الغد ودع القائد الشاب وانصرف . وعادت الايام الى حالها رتيبة مضجرة يشبه واحدها الآخر كمعاطف الجنود لا فرق بين هذا وذاك . فما كان من أحد يستحق ان يخترق الانسان الساحة مدفوعا بحبه اليه اذ لم يكن بالمركز سوى الشيوخ .. ذوى الاربعين او من ناهزوا الاربعين من عمرهم .

ومرت خمسة أيام فاذا جماعة من الالمان على دراجاتهم النارية يزحفون على مكان فى ضاحية قرية «اولخوفكا» ذاك الذى أصبح موضوعا للانشودة التى تحبها النساء كثيرا . كانت الدراجات تمر كالسهام الواحدة وراء الاخرى وراء الكنيسة المدمرة . وتجاسرت النادلة التى كانت معروفة بذلاقة لسانها فامطرت الاعداء بوابل من السباب من أعمق اعماقها فاردوها قتيلة برميها بوابل من مدفع رشاش . وكانت النادلة المسكينة أول ضحايا العدوان بقرية «اولخوفكا» .

لقد دامت المعركة ساعتين وشاركت فيها كاتيا نفسها . كانت تجهد نفسها لتغمض عينيها قبل كل طلقة وتنسى ان تلصق مؤخرة السلاح بكاملها فباتت من جراء ذلك تشعر بألم مبرح وقد تورم كآعلها ولم تعد قادرة على الرقن لمدة طويلة .. ولم يعد فى الواقع من يتولى الاملاء بينما هى ترقن . كانت بجانب الملازم العقيد كلوخوف فى ساعات الاحتضار . وكان لا يقلع بصره عنها بعينين جامدتين لا تطرفان وكأنه يجهد نفسه ليقول شيئا ما دون جدوى. الدم الذى كان يسيل من زاوية شفتيه كان يحدث فقاعات صغيرة .

وبسبب تلك المعركة الجهنمية غير المنظمة والتى دارت رحاها مدة ساعتين كوفىء جميع من شاركوا فيها بوسام شرف فى الشهر الموالى . تسلمت كاتيا فى يوم مشهود وقد توردت وجنتاها اعتزازا وخجلا أول وسام للجندى «للاستحقال» من يدى عضو المجلس الحربى .

وبعد تسلمها الوسام دخلت كاتيا الى ملجئها وبكت طويلا · كانت الدموع تنهمر على خديها مكورة وتقع على ميداليتها الوهاجة الجميلة · وكان قلبها ينفطر أسى ولوعة على كلوخوف وعلى النادلة وعلى نفسها هى ايضا · كانت تشعر بعطف مدمر مكين على نفسها هى ايضا ·

وعوض الملازم العقيد الذى دفن فى الخندق الجماعى مع النادلة واثنى عشر رجلا من اركان الجيش بالكابتن دفورتسوف وهو رجل طويل القامة ذو شعر أشيب وذراع طويلة ، ولربما كانت ذراعه تبدو أكثر طولا من المعتاد بسبب ان له ذراعا واحدة مما جعل كاتيا لا تشخص ببصرها الا فى تلك الذراع الوحيدة المديدة الى أقصى حد .

ـ أهذه كل فرقتى ؟ أنت ؟

ـ أنا ··· نعم

ونهضت كاتيا وقد تملكها الذعر فجأة كما لو لم يدخل الى الغرفة كابتن قطعت ذراعه وتعددت آثار جراحه ووشح صدره بالكثير من الاوسمة بل كما لو طلع عليها مصيرها ذاته ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال : كيف يسمونك ؟

قالت : كاتيا ·· أقصد ··

قال : قبلنا كاتيا

والقى بنفسه على كرسى طفق يئن بصوت حزين ثم اردف يقول :

ـ ذاك من حسن حظى ولا شك ·· فبعد فرقة من رماة المدافع الرشاشة ها أنذا على رأس تلميذة · لا يهم ·· ايتينى بأوراقك وأحيطينى علما بما يجرى هنا ··· لماذا تحملقين فى وجهى هكذا ؟ ألم ترى فى حياتك رجلا مقطوع الذراع ؟

غضت كاتيا من طرفها وعضت شفتيها وهى تنشر ملفاتها أمام الكابتن الذى طفق يلقى عليها نظرة عجولة مبديا ضجره فى تعضن من أجبره الطبيب على ابتلاع زيت الخروع ·

ـ ما اسعدك يا «دفورتسوف» .. الاصدقاء ... هناك .. يشربون من دم الاعداء «الفريتس» وانت هنا .. تعد السراويل الداخلية ... لعنة الله ... على .. دين .. سماء ...

فأوقفت كاتيا سيل التجديف بصوت حنون وقد أحمر وجهها فجأة وهى تقول متوسلة :

ـ ارجوك ...

فاندهش دفورتسوف من موقفها وقال وهو يرميها بنظرة استعلاء وتعجب:

ـ ماذا دهاك ؟ ضعى القطن فى اذنيك ريثما تتعودين على كلامى .

فأجابت باحتشام :

ـ سأحاول ... سأحاول دون شك .. لكنى أعلم مسبقا اننى لن أتعود ابدا . لذلك اتوسل اليك ثانية ان تعزف عن التجديف والكلمات النابية .

كانت كاتيا وهى تقول ذلك ترتعد فرقا خشية ان يلاحظ الدموع وهى تغرق عينيها كالسيول الجارفة .

واكتفى الرجل بطمأنة غريبة مدمدمة ثم سكت وعاد الى مطالعة الكتاب الذى بين يديه وفى صباح الغد قدمت كاتيا الى المكتب وهى تحمل علبة كبيرة من القطن وعند دخول دفورتسوف سدت أذنيها سدا محكما .

قال لها فى رصانة :

ـ دعك من هذه السخافات .. لن أقولها .. كلمات التجديف التى تكرهينها .

وصحيح أنه لم تبدر منه كلمات نابية بعد ذلك اليوم بمحضرها لكن كاتيا حافظت منذ ذلك اليوم على كنية «تلميذة» . ولو لم يكن القصد من تلك الكنية السخرية التى كانت تشعر بها كلما فاه بها دفورتسوف لكانت قبلتها عن طيب خاطر وربما تشرفت بها .

هكذا اندلعت «الحرب الباردة» . لم تكن كاتيا تتحمل تلك الشراسة التى لا مبرر لها فى الواقع لكنها شراسة أبى رئيسها الا أن يبديها علانية . اما

كاتيا فلم تحاول ولو مرة واحدة أن تستميل قلبه فقد تجاوزت سن الغنج والطيش ولم تكتسب بعد السيطرة على انوثتها والوثوق الكامل من نفسها · والم بها القلق وضيق عليها انفاسها كانت تشعر لاول مرة فى حياتها ان شيئا ما يكبلها من الداخل ويجعلها مشلولة منهارة · كانت تتلعثم عندما تجيب عن سؤال وتقترف غلطات فادحة وكان كل شىء يفلت من بين أصابعها وعندما يجن الليل يعاودها البكاء دون أى سبب معقول ·

وكان النساء يعلقن على هذا الوضع الجديد فى حسرة :

ـ من يتوقع أن كاتيا المسكينة تقع هكذا فى شرك الحب .

وعندما تسمع كاتيا ملاحظاتهن تحنق وتنفى دعاواهن . وأحيانا تجسر فترفع صوتها متوعدة مهددة . كانت فى قرارة نفسها متيقنة من أنهـا تكـره الكابتن دفورتسوف . انها تمقته الى حد انها لا تتحمل مجرد النظر اليه . مرآه يزعجها وفى المكتب لا ترفع بصرها عن ملامس آلتها الراقنة التى كاد يفنيها الاستعمـال .

أما هو فكان لا يتوجه اليها باى كلام · لم يكن يملى عليها شيئا بل يكتفى بان يضع على المكتب أوراقا بخط يده وهو يأمر فى جفاف :

ـ اريدها فى المساء ·· خمس نسخ ·

فترقن ·· دون أن ترفع رأسها ودون أن تشعر احدا بانها لاحظت من دخل الى الغرفة ·· كانت كالغائبة ··· كما لو لم تكن هى ·· كما لو كانت تتمة آلتها الراقنة .. أو متدادا لها .

★ ★ ★

ـ كوستيا · غير معقول · من اعلمنى مؤخرا بانك مزقت اربا اربا ؟

ـ صاشا ·· أهلا بك يا شيخ ·

لم تتخيل كاتيا قبل ذلك اليوم أن بامكان الكابتن دفورتسوف أن يضفى على صوته تلك الرقة وتلك النبرات الدافئة · لم تكن تنتظر منه ان يعبر عن فرحته كسائر البشر لذلك هى صرفت عينيها عن ملامس حروف آلتها لاول مرة منذ عدد لا يستهان به من الايام ·

رأت دفورتسوف وهو يربت على كاهل عقيد قزم ويسدد له لكلمات بقبضة يده على صدره وكان العقيد يضحك ملء شدقيه ويضرب هـو ايضـا بيـده المتضامة مما جعل الاوسمة على صدر هذا وذاك ترن رنينا مضطربا متواصلا.

وعندما هدأت الاعصاب جلس الرجلان واشعل كل منهما سيجارة بينما تظاهرت كاتيا باعادة قراءة عملها لكن أذنيها كانتا فى الحقيقة حذو مكتب الرئيس .

ـ اذن ... هكذا تكون قد نجوت يا حيوان . انا والله سعيد .. فى منتهى السعادة لو علمت . وما حال «لينا» خبرنى ؟ وابنك كيف أحواله ؟

خيم السكون لحظة .. مجرد لحظة .. لكن كاتيا لم يفتهـا شىء ... لقـد فهمت من الوهلة الاولى وقبل أن تستمع الى الجواب . فهمت كل شىء .

ـ تحت القنبلة نفسها .. صاشا .. قنبلة واحدة لليينا ويورا

ـ غير ممكن يا كوسيتا ؟ لا اصدق .

ـ قنبلة يا صاشا .

رددها كوسيتا فى هدوء ورصانة ثم تابع :

ـ اما أنا فكما ترى .. بقيت على قيد الحياة . اليست هذه مهـزلة يـا صديقى ؟ تدعسنى دبابة مصفحة لكنى رغم ذلك انجو من الموت ... هكـذا تدبر الامور احوالها .. تلك هى الدنيا العاهرة كما كان يقول رئيسنـا فى قيادة اركان الجيش .

ـ هل أنت واثق مما تقول يا كوستيا ... قد تكون الامور ...

ـ لا تكون الامور الا ما كانت عليه يا صاشا .. كان القائد كـراستوف فى نفس السيارة . انت تذكر ولا شك القائد كراستوف ذاك الـذى كـان يعشق الصيد بالصنارة ... اذن .. كما قلت لـك .. هكـذا .. طـارت رجله ... بينما هما .. صمتا لحينهما . محقا محقا .. كراستوف هو الذى قص على ما حدث كنا فى نفس المستشفى اذ اوهو ...

كان العقيد يقول كلاما غامضا وعزفت كاتيا عن الاستماع اليه ،ودفورتسوف أيضا .... انشغل عن ذلك بشيء ما ... ثم رفع رأسه فجأة وهو يطلق ضحكة مدوية ويقول :

ـ قل لى يا حضرة العقيد ؟ ما رأيك فى لكمة تطير فكيك ولا وبعثونى بعد ذلك الى فيلق الاصلاح لتحسين سيرتى . انا لم أعد اتحمل الحياة فى هذا المكان ... اتفهم ؟ لا يمكن ان أحيا هنا .

ونهض العقيد ومشى خطوات ونظر الى كاتيا دون أن يشعر بوجودها تماما كما لو كانت الموقد ثم عاد الى دفورتسوف ليقول له :

ـ حرر تقريرا باسم القائد العام ... قل فيه كل ما حدث ... لينا وابنك والمصفحة التى داستك وأنا اتكفل برفع التقرير الى القائد الاعلى يدا بيد . هو يعرفنى ولن يلومنى على خرق القانون الجارى به العمل .

وفى المساء زار دفورتسوف «الايصبا» التى يسكن فيها النساء ووضع على مائدة الطعام علبة من لحم البقر المصبر وقربة ملآنة الى العنق وهو يقول :

ـ اشربن وكلن على نخب أهلى .. اذكرنهم وابكينهم اذا استطعتن .

وسار نحو الباب ثم توقف قليلا كأنه تذكر شيئا هاما . وجذب من محفظته قطعة كبيرة من الشوكولاطا الامريكية والقى بها فى اتجاه كاتيا قائلا :

ـ خذى .. هذه لك أنت يا «تلميذة»

ثم انصرف . وقصت كاتيا على مسامع النساء قصة عائلة دفورتسوف . فشرب النساء الكحول خمرة صافية لا ماء يخالطها فبكين وغنين . ومرة أخرى وليست الاخيرة قضت كاتيا ليلتها نائحة منتحبة الى الصباح ... لكن دموعها لم تكن فى هذه المرة نفس الدموع التى كانت تنهمر من عينيها . لم تكن تفكر فى نفسها ولم تكن تشعر بالعطف ازاء ذاتها هى اذ لاول مرة فى حياتها التى ما زالت قصيرة دون شك ... تشعر بالحنان على رجل .. على اجنبى ... لم تعطف عليه من أجل بتر ذراعه . وبسبب عجزه ذاك بل من أجل الاشياء الاخرى .. وكل شيء لذلك بكت وناحت كما لا يبكى ولا ينوح

سوى الروسيات • ومن خلال ذلك العطف اللامتناهى نشأ فى قلب كاتيا وفى دماغها يقين نما وتمكن بأن عليها هى دون أى أحد سـواها ان تنقـذه مـن باواه .. من الضيق الذى يكابده ... من وحدته القاتلـة .. وان بامكانهـا هى أن تعيد له الهناء وفرحة الحياة • وكانت تعرف كيف ستتصرف لتحقيق ذلك • ولاول مرة فى حياتها لم تخجل كاتيا من أحلامها • بل العكـس فقد باتت شهواتها الجسدية والانثوية تذكى فيها الشعور بالقـوة وبالرصـانـة وبالحكمة • وكل هذه المشاعر متضافرة خلقت منها امرأة بحق •

لكن كاتيا لم تكن جريئة الا من حيث افكارها فى الليل • فاذا طلع الصباح احمر وجهها وحسر بصرها وتعددت الهفوات فى رقنها • تعود الشجاعة الى كاتيا عندما لم تعد هى فى حاجة اليها ذلك ان الكابتن دفورتسوف لم يلبث ان استرجع هدوء اعصابه فدخل على كاتيا وهو يغنى بصـوت اجـش وفى نشاز قطع الاغنية المحببة الى معسكرهم • والتى تقول :

تسير القاطرة بالليل والنهار •
بالليل والنهار تسير فى اتجاه الغرب •
وفى القاطرة تلك ، اخرج من جيبى
صورتك •
انا اعرف انه ليس بمقدورك ان تتغيرى •
اعرف جيدا انك بقيت كما انت ••

وكانت كاتيا تستمع اليه وهى فاغرة الفم متعجبة ، ودعاها الى الانشاد معه بلهجة آمرة :

ـ هيا يا كاتيا ••• صاحبيتى •
غارة ليلية •
بالقنابل اليدوية •
هذه المعركة لا تنتهى ابدا •
واعلم اننا سوف نلتقى من جديد •

وطفقت كاتيا تغنى • كان صوتها فى البداية هادئا ومتلعثما شيئا ما ثم غنت بصوت طليق وعال كما كانت تغنى فى ايام ألملازم العقيد كلوخوف • وبعد أن أنهيا الانشودة الى آخرها بكامل الحزم والجدية ابتسم الكابتن دفورتسوف ابتسامة عريضة وهو يقول :

ـ وافقوا يا كاتيا •• سيخلون سبيلى ••• سأرحل •

ـ ترحل ؟ الى اين ؟

قالت كاتيا ذلك وقد فهمت ما يعنيه درفورتسوف قبل ان تمحى الابتسامة من محياها وطفق قلبها يخفق بشدة ويؤلمها •

وأجابها الكابتن بكلمات انشودة اخرى تقول :

ـ «كان الشاب يتأهب للالتحاق بالجيش ، وكانت الفتاة بصدد توديعه»•• ثم طوق بذراعه الوحيدة كرسيا وهم بالشروع فى رقصة «فالس» وهو يتابع الاجابة عن سؤال كاتيا •

ـ لقد ألحقونى برتبة مساعد أول لقائد اركان الجيش فى فريق يقاتل فى الخطوط الامامية . سيقدم « ساشا » غدا ليصحبنى الى هنـاك ... وعندها أودع التلميذة •

ـ غـدا ؟

ـ نعم يا كاتيا ••• غدا •

ونهضت كاتيا فورا • فتبعثرت على الارض أوراق هامة بل قل مجموعة من الوثائق السرية • لكن كاتيا لم تلاحظ شيئا من ذلك اذا لم نقل انها لم تكن تريد أن ترى شيئا • كانت لا ترى شيئا سواه ••• سوى ذلك الرجل الذى كان مدمرا فى الداخل ومبتورا فى مظهره الخارجى • كانت تراه آمامها وتتقدم نحوه بخطى ثابتة وهى تزيح فى طريقها اليه الكراسى المرقمة والمضبـوطة العدد بسجلات النظارة • قال وهو يشخص فيها بحدة ويضغط على كتفيها بشدة :

ـ ماذا دهاك يا جندى ؟

كان يمنعها من الخطوة الاخيرة التى ليس بعدها الا صدره هو .. ذلك الصدر الذى كانت تتلهف تلهفا جنونيا لضمه اليها .. كانت تحلم بأن تنفث فى الجسد دفئها وتلك الفتوة الغبية والساذجة الى أقصى حد التى تتضوع من جسدها . لكنه سخطها بكلمة «جندى» هو لم يدعها باسمها «كاتيا» ولا حتى بـ «يا صغيرتى» أو على الاقل بكنية «التلميذة» بل سماها «الجنـدى»

لذلك اخفت كاتيا وجهها المهموم وراء راحتيها بسرعة لانها شعرت بانها كانت فى موقف من سدد صفعة قوية ارتجت لها اركانه كلها .

قال دفورتسوف بلطف وهو يمعن فى ابعادها عن صدره بذراعه الوحيدة

ـ ترين يا صديقتى الجندية أن ساعة الحب لم تحن بعد . انه العطف ولست فى حاجة الى من يشعر بالعطف نحوى . فمن شأن ذلك أن يلينني ويفقدنى صلابتى . كل شىء بالنسبة الى انتهى ولم يعد يهمنى الماضى والمستقبل معا .

ورددت كاتيا وهى ما زالت تخفى وجهها براحتيها فى هدوء وثبات :

ـ اذهب ... تنح عنى .. اتوسل اليك .

فقال وهو يهز كتفيها بصلابة :

ـ وداعا يا جندية ، الحب زمان الحرب ايضا ضرب من الذهب ... لذلك لا يجدر بك أن تبذريه احتفظى به لشاب طيب هو أولى به منى .

لقد لقن دفورتسوف كاتيا درسا قاسيا لم تندمل جراحه الا بعد مدة طويلة بالتدرج لذلك لم يتمكن المقدم «مالنيك» الذى خلف دفورتسوف ، من استمالة قلبها والحال أنه من عشاق الجنس اللطيف رغم الجراح التى تركت الحرب آثارها على جسده . كانت كاتيا حزينة وجامحة وشرسة الى حد كبير ومتجهة كلها نحو ماضيها وبالتالى نحو حبها البائس للكابتن المبتور الذراع .

وكان ذلك الماضى لمدة سنة كاملة هو الذى ابقى لحبها نضارته ورونقه اذ بعد مرور سنة على تلك الحادثة تفجر فى كيان كاتيا ذلك الظمأ للحب الذى كان مكبوتا بسبب عذريتها وأرتدائها الزى العسكرى . فقد تفرقعت فعلا فى احضان ملازم فى سنها وخط الشيب صدغيه وحرقت الشمس بشرة وجهه

وحفرت الشجون بين ما تبقى من حاجبيه غضنا مريرا • انفجرت وسط غابة بتولة مضاءة كداخل كنيسة وغطى صوت كاتيا زقزقة عصافير مدوية هائجة• وعندما تذكر كاتيا اليوم تلك العصافير المترنمة وذلك الصوت الذى بدر منها لا تتمالك ان تبتسم فى لطف وحسرة وهى تمسح باطراف أظافرها الدموع التى تتدحرج من مآقيها وتبلل اشفارها •

كان الملازم عنبدا وملتهب المزاج . وعبثا حاولت كاتيا ان تفهمه بخجل كبير ان فستانها تجعد من الخصرين الى الرجلين وان أمرهما سيفتضح امام الناس وانها تموت خجلا فى كل لحظة فقد سحبها من يدها بين الجموع واجبرها على الدخول الى الملجأ الذى كان يقطنه رئيسه وهو يقول :

ـ هذه زوجتى يا حضرة الرفيق العقيد • أنا أريد أن يكون زواجنا مسجلا بصورة رسمية •

ودار بين الضابطين هذا الحوار :

قال العقيد الى كاتيا بعد برهة بلهجة الامر :

ـ اخرجى من هنا •

فقال الملازم وهى يشدد ضغطه على يد كاتيا :

ـ لا •• قل بمحضرها ما كنت تنوى أن تقول •

فاجاب العقيد بعد صمت قصير :

ـ كما تريد •• الحرب أولا •• العائلة تأتى فى مرتبة ثانية •

فقال الملازم فى حنق :

ـ هذا لا يمنع ذاك

فأردف العقيد فى ثبات :

ـ لا يمنع كما تقول لكن شريطة أن تعود حيا من مهمتك •

ولم يعد الملازم من خطوط النار • واخبر العقيد كاتيا بانه دافع عن نفسه حتى آخر خرطوشة الى أن أصابته قنبلة يدوية مضادة للمصفحات فرقعته • ذلك أن المهمة لم تكن مهيأة بما فيه الكفاية • لكن بالنسبة الى كاتيا كان لا بد للملازم أن يبقى ذاك الرجل الذى نفث الحب فى حياة فتاة طاهرة والذى رحل

وهو يحمل فى جرابه ذلك الحب • ومنذ ذلك اليوم الرائق من أيام ماى ظلت كاتيا تجيب عن اسئلة الاوراق الادارية بأن زوجها قضى نحبه فى الحرب •

★ ★ ★

يا لها من آلة تلك التى لا تنفك تدوى وراء الجدار •• كالمدفع الرشاش •

ـ افهمينى جيدا •• أنا جد متعجلة •• تسعون صفحة •• أنـا تأخـرت بهذا العمل بصفة لا تسمح بأى تمهل •

ـ لا تخافى •• كونى واثقة بانى سانجز العمل فى الموعد •

واذا وعدت كاتيا فانها دائما تفى بالوعد • وان كلفها ذلك ان تسهر راقنة طوال الليل • ولا يمنعها ذلك من الالتحاق بمكتبها فى الصباح الباكر • وهناك أيضا سترقن وهناك أيضا سوف يطلبون منها أن تعجل وسوف تلبى الرغبة وتقوم بالوجب على أحسن وجه وتنجز العمل فى الآجال المضروبة لهـا لكـن بحرمان نفسها من ساعة الراحة التى تتناول فيها الغداء عادة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكانت كاتيا فى ألمانيا عندما وضعت الحرب أوزارها وتم النصر • فغنت وبكت ثلاثة أيام متتالية ورقصت واطلقت النار من مسدسها فى تلك السماء الاجنبية • كانت بالوداعة وكأنها سكرى بسعادة يعجز اللسان عن وصفها ، سعادة كانت من فرطها تكسف الالم المبرح الذى عشش فى صدرها منذ شهر مارس من سنة خمس واربعين • ففى ذلك الشهر وصلتها رسالة فى نفس الرسالة بأن والدتها ماتت بعد شهر من موت ابيها • لقد كتبت الرسالة فى بيتنا المشترك بعد العودة من المقبرة مباشرة • كانت الجارات اللاتى وخط الآن الشيب رؤوسهن يهيئن الغذاء الجنائزى الذى كان دسما كما يتوقع فى زمان الحرب العصيب وهن يحركن الكؤوس فيحدثن من تلاطم بعضها ببعض دويا • بينما كنت أنا أحاول عبثا أن أجد بديلا لكلمة «موت» •

ورجعت كاتيا فى فصل الصيف الى غرفتها الشاغرة • كنا ـ نحن أهالى البيت ـ حول مائدة الطعام فى غرفتها نحتسى الخمر التى أتت بها وناكـل اللحم الامريكى المجفف الذى كان يمثل آخر وجبة لها فى الجيش • وكنت

الرجل الوحيد أمام المائدة لان جميع رجالنا الآخرين الآباء والازواج والابناء كل «حلاحلنا السبعة» كما نقول بقيت فى غياهب الخنادق المشتركة لهذه الحرب الضروس ٠

كانت كاتيا مصممة على متابعة دراستها وكنا كثيرا ما نتحدث عن هذا الموضوع . كانت النساء يشجعنها على الالتحاق بالكلية دون التفكير فى أى شىء آخر سوى طلب العلم ٠ كن يرددن على مسمعها :

ـ فكرى جيدا فى الامر ٠٠٠ أنت الوحيدة التى نجت من الهلاك وعادت الينا سالمة ٠ وما ضر ان تتظافر جهودنا جميعا لنضمن لك المأكل والملبس لا تزعجى نفسك من هذه الناحية ٠ لا يهمنا الآن الا مزاولة تعلمك ٠

وكانت تبتسم وهى تمسح دموعها وتقول بلطفها المعهود :

ـ شكرا لكن يا صديقاتى الطيبات الحنونات ٠ شكرا جزيلا ٠

لقد أصبحت كل فساتينها ضيقة لذلك ارتدت زيها العسكرى زمنا طويلا وكانت الاوسمة التى توشى صدرها تحدث دويا كبيرا عندما تصطك ببعضها بعضا . وكانت تتردد على الجامة لتسترشد عن مناظرة الدخول الى كلية الآداب كما كانت تزور صديقاتها وكذلك امهات اصدقاء الدراسة اللائى يعشن فى وحدة وانعزال ٠ وفى نفس الوقت كآنت كاتيا تبحث عن أهلها ٠

كانت تبحث عنهم فى عناد واصرار فتكتب الرسائل وتقوم بمساع كثيرة وترتاد المكاتب وتعمر العديد من الاوراق والمطالب وكللت مساعيها بالنجاح فعثرت على أهلها ٠

قالت لى :

ـ اعلم أنى وجدت شغلا ٠

قلت ٠

ـ ما قضية الشغل هذه ؟ والجامعة ؟

قالت :

ـ الجامعة ؟ لم أتمكن من تسوية الامور مع الجامعة ٠

كانت الساعة تشير الى منتصف الليل تقريبا وكنت رجعت من الدرس منذ برهة لانى كنت اشتغل بالنهار وادرس بالليل . والتحقت كاتيا بالمطبخ عندما سمعت حركة الاوانى التى كنت بصدد تنظيفها .

قالت :

ـ زوجى ابن عمى لم يعثروا عليه بعد ان فقد فى مای سنة اثنين واربعين امام مدينة «خركوف» ترك لها ثلاثة اطفال . التوأمتان ولدتا فى نفس السنة بالضبط .. سنة اثنين واربعين ... طفلتان هما غاية فى اللطف والجمال .

وحاولت بحماس كبير أن أقنعها بانها تستحق الآن ان تفكر فى شؤونها هى قبل اى أحد سواها . وبان لا حق لها فى العدول عن تحقيق حلمها . وبأنها.. ماذا كان بوسع عامل بسيط بمصنع «دينامو» أن يفسر لامرأة مثل كاتيا وهو لم يناهز بعد سن السابعة عشرة . لكن كاتيا كانت تستمع الى فى سكون وهى تلقى على من حين الى حين نظرات كلها اعتراف بالجميل ثم قالت :

ـ اعلم أنهم يعدون حبات البطاطة .

والتحقت بعد ذلك بمكتب مختص فى الرقن .. اذ كان الرقن حرفتها . واستمرت على ارتداء زيها القديم للذهاب الى عملها مع فارق بسيط يتمثل فى أن ميدالياتها لم تعد ترن لانها نزعتها منذ اليوم الثانى من التحاقها بالمكتب.

كان الجرس يرن بشدة وذهبت أنا لافتح الباب . فاذا بسطح الدرج ملازم وقد امسك بيده اليمنى حقيبة غريبة المظهر وقد تكون ثقيلة اذا صدق حدسى وكان كمه الايسر مدسوسا فى جيب معطفه بعناية ودقة . وقبل أن يجد فرصة الكلام سمعت كاتيا من وراء ظهرى وهى تطلق صرخة صغيرة فانزحت عن الباب . واذا بالملازم يقول محييا :

ـ اهلا بالتلميذة .. تحياتى يا جندى الطيب .

فى ذلك اليوم استحوذت على مجموع البطاقات التى كانت فى حوزة الجيران لاشترى من متجر ساحة «سنمولانسك» قارورتى كونياك واحسن ما وجدت من أقراص الحلوى . وعندما رجعت وأنا ألهث من الجرى رايت آلة رقن من نوع «اولمبيا» جديدة الصنع تلمع لمعانا لحداثتها موضوعة على طاولة صغيرة أمام كاتيا .

شعب بثقتنا فى مجموعه شرب الكونياك وتذكرنا كل من لم يعد من المعركة وغنينا مع كاتيا ودفورتسوف :

بالليل والنهار ... المعركة على قدم وساق لا هواة فيها .

وعندما انتهت الاغنية هم دفورتسوف بتوديعنا وهو يقول :

ـ اعذرينى يا كاتيا .. قطارى ينطلق بعد ساعة .. انا مجرد عابر كما ترين .. فى طريقى الى سيبيريا .

فنهضت كاتيا وهى تقول مذعورة :

ـ كيف تكون عابرا ... ولماذا مجرد عبور ؟

فأجاب الملازم بابتسامة خجولة وفيها كثير من الندم :

ـ سألتحق هناك بزوجتى

فصاحت كاتيا متسائلة :

ـ أما زالت حية ترزق ؟

وكان فى صيحتها تلك كثير من الفرح ومن السعادة الصادقة .

فأجاب الملازم فى حسرة :

ـ لا .. علق قلبى بمترجمة .. كما ترين .. عشقتها فتزوجنا وانجبت منها طفلة ...

وذهب دفورتسوف وبقيت الهدية . والآن أصبحت كاتيا تأتى بالعمل الى المنزل . وحررت العديد من الاعلانات ألصقناها على كل الاوتاد والعمد فى المدينة «اعمال الرقن على اختلافها» ولم تكن كاتيا ترقن بسرعة فحسب بل كانت تحترم قواعد النحو وتراجع نصوصها بامعان شديد بحيث لم يكن من اللازم مراقبتها فيما بعد ـ وكان لها كثير من الزبن ولكنها تعودت الا ترفض العمل ابدا ولو كان على حساب صحتها . كانت لا تحرم نفسها من الراحة والترفيه فحسب بل حتى من مصيرها هى كامرأة ، ذلك المصير الذى لم يكتب له أن يكون منظما وسويا .. قبلته هى دون تأسى او عبوس .. دون أن تتذمر منه اكثر من اللازم ودون أن تظهر الحزن منه وبسببه لمن حولها . صحيح انها اصبحت لا تضحك الا لماما وان فساتينها اصبحت شيئا فشيئا اكثر حلكة وقتاما حتى انتهى بها الامر الى السواد الفاحم تماما . لكن رقبة اثوابها كانت دائما فى بياض الثلث ودائما مستقيمة ومستوية .

وربما يرجع السبب فى ذلك الى أمر آخر محدد ومضبوط ٠

٠٠٠ كانت عاكفة على رقن مخطوط من تاليف رجل من الارياف مختص فى السيناريو وعندما سلمها النص الذى كان جانبا منه مرقونا والجانب الآخر مخطوطا كان المؤلف مضطربا شديد الاضطراب يدخن باستمرار من اثر الارتباك ولا ينفك يردد :

ـ افهمينى جيدا ٠٠ كل هذا ولا شك فارغ لا طائل من ورائه لكن الاستوديوهات تلح على اقتنائه ... سخافات .. قلت لك بالتأكيد .. اذا امكنك الا تقرئى لا تزعجى نفسك بقراءتك ٠

وتذكرت كاتيا «مسترتوث» فابتسمت فى دخيلتها ٠٠ كانت تعشق «ديكنز» ٠٠ يا له من رجل طيب «مسترتوث» ٠ قالت متسائلة :

ـ كيف يعقل أن أرقن نصا لا أقرؤه .

وافحمت الرجل فقال خاضعا لمنطقها :

ـ صحيح صحيح ٠٠٠ معك الحق ٠٠٠ لكن حاولى الا تقرئى بامعان ٠

فأجابت :

ـ وعندها اترك لك الكثير من الهفوات ٠

فاذعن مرة أخرى وقال وهو ينتهد ويشعل سيجارة جديدة .

ـ الحق معك هنا أيضا ... أنت على صواب ما فى ذلك شك ... هل يزعجك الدخان ؟ افهمينى جيدا من فضلك ... أنا أريد أن أظهر لك فى مظهر من ادمن الكتابة ٠

وما ان غادرها «توث» حتى طفقت تقرأ السيناريو على مهل وقد وجدت صعوبة كبيرة فى حل الغاز ما كتبه المؤلف لرداءة خطه لكن النص بدا لها جيدا ٠ وكانت ترقن عندما توقفت فى منتصف المخطوط تقريبا ٠

ـ الم تنامى بعد ؟

كانت الساعة تشير الى الثانية عشرة وكنت فى الغفوة الاولى من النوم لكنى استيقظت ٠ ودخلت على كاتيا والمخطوط فى يدها وهى تبتسم على نحو غريب ٠ فكأنما هى اكتشفت لتوها شيئا خارقا للعادة لكنها لا تجرؤ على التسليم باهمية اكتشافها ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سألتنى قائلة :

ـ قل لى ... لو كنت فتاة ووقعت فى حب رجل كالمجنونة .

كنت أود أن أنام .. ولم أكن طفلة ولم أجن بحب أحد ... وكنت ارتدى مجرد سروال داخلى وكان البرد يؤذينى لاننا فى الشتاء والحق يقال لا نتدفأ بما فيه الكفاية . لكنى رغم كل ذلك اجهدت نفسى لالقى عليها سؤالا :

ـ من اقع فى حبه .. هل هو يستحق حبى على الاقل ؟

قالت وفى عينيها بريق ايام الشباب :

ـ هذا بيت القصيد .

فى الوقت الذى اتحدث عنه كانت عينا كاتيا مكدودتين وقد ضعف بصرها من اثر الاعمال الكثيرة التى كانت تنجزها ليلا . لذلك فقدت نظراتها الكثير من بريقها لكن كاتيا ظلت ترفض ان تحمل نظارات على عينيها . وتابعت كلامها :

ـ بيت القصيد لانه لا يحبك بعد . الى حد الآن .. اعنى انه لا يشعرك بذلك الى حد الآن . افهمت ؟

وعن غير قصد .. هو يجرحك ويكسف خاطرك .. ثم لا تنس أن له مشاكل كثيرة ... قضية منجم فحم او شىء من هذا القبيل وكل اصدقائه خذلوه وتركوه يتخبط فى همومه . كل الاصدقاء .... فهو وحيد وهو يتألم ... ماذا يجب عليك ان تفعل ... أنت ... والحالة كما ترى .

ـ لست ادرى بالضبط ما يجب ان افعل .. اذن .. كما قلت .. انا فتاة عاشقة ؟ ومن رأى أن علي أن ألتحق بالرجل وان اضرب عرض الحائط بكل مناجم الدنيا والآخرة ...

ـ لكنه قسى عليك وآلمك .

ـ وماذا يهم ذلك ما دام هو تعسا .

ـ آه .. هذا هو بيت القصيد .

قالت كاتيا ذلك فى صيحة .. ظافرة .. وتابعت :

ـ ٠٠ لكن المؤلف لم يتفطن لذلك ٠٠ لان الانسان عندما يحب ٠٠ او عندما يشعر بمجرد الميل الى شخص ما فانه يعطى كل شىء ٠٠ كـل شـىء ٠٠٠ اتفهم ؟ الحب عطاء قبل كل شىء وتسامح ٠٠ المحب يعطـى ويصفـح ٠٠٠ وبمنتهى الرضى والفرحة ايضا ٠

ولم تتابع الرقن بعد ذلك بل اتصلت تليفونيا بمسترتوث منذ صباح الغد باكرا ٠ كان يوم أحد ٠ واقبل مستر توث مسرعا ومكثا طويلا يتحـاوران ويتناقشان فى الموضوع ثم دخلت على كاتيا فى سرعة السهـم وهى تعلـن منتصرة :

ـ لقد اتفق معى ٠٠ اقتنع اخيرا ٠

وظلت ترقن طوال الليل النص المنقح وبعد اسبوع طلع على كاتيا صاحب السيناريو وبيديه الازهار وقارورة خمر . وقال :

ـ السيناريو مقبول ٠٠ وبكامل الترحاب ايضا ٠٠ وما اعجبهم فيه بالذات٠٠ هى الفقرة التى اقترحتها كاتيا ٠

ـ لا تقل هذا ولا تغال ٠٠ أنا ٠٠

ـ نعم نعم .. أنت .. أقول ان فقرتك اعجبتهم ولو لم تقترحيهـا علي .. خلاصة القول ٠٠ أنا ادعوك لحضور السهرة الاولى ٠٠ الرسمية ٠٠٠

فلاحظت كاتيا وهى تبتسم :

ـ دعوة واحدة لا تكفينى ٠ هناك سبعة أزرار فى واجهة بـابنا ٠ سبعـة أجراس ٠

وشربا قارورة الخمر ٠ وكان «توث» يداعب كاتيا وكانت هى سعيدة الى أقصى حد . وكلما تقدم الليل فى الخارج نشطت كاتيـا وانشـرحت واصبح قلبها ينبض كما لم ينبض قط منذ زمن طويل ٠٠ منذ الحرب ٠ ولم يشعر توث مضيفته بأن عليه أن يعجل بمغادرتها بل احضر الشمبانيـا وطفق يقص على كاتيا قصصا مضحكة واخبارا مسلية بطريقته الفنية وكانت كاتيا تضحك ملء شدقيها وتقهقه بصوت مرتفع جهورى ٠ كانت تخشى ان يودعها الرجل وتخشى ان يبقى معها ٠٠ كانت تخشاه وتخشى نفسها ٠

وعندها دقت الساعة منتصف الليل ، تحفز توث لتوديع كاتيا وهو ينهض قائلا :

ـ الساعة متأخرة جدا ٠٠ وقد أجد الباب موصدا اذا تأخرت أكثر ٠ فأنا نازل عند اصدقاء ٠٠٠ ويقينى انه من الافضل ان اجد مأوى هذه الليلة عند جارك لانى فهمت انه يسكن فى البيت بمفرده ٠٠٠ اليس كذلك ؟

فقالت كاتيا بصوت هادىء كانت مذعورة لفرط هدوئه :

ـ ولم تريد ان تنام عند الجار ؟ ٠٠ سأفرش لك شرشفا على هذه الاريكة ٠ وأعدت سريرين لكنهما استيقظا صباح الغد فى سرير واحد . ككل النساء كانت كاتيا تعرف ان الامور ستجرى هكذا على ذلك النحو وككل النساء كانت تتوقع وتقنع نفسها بأن شيئا هاما جد أو على الاقل بأن وعدا يتصل بشىء هام سيحدث فى صباح الغد ٠ لكن خاب ظنها وخانها الحدس اذ لم يقع شىء مما كانت تمنى نفسها به ٠ استيقظ مستر توث وهو اشد ما يكون اضطرابا وعجل بتوديعها بسبب اشغال كثيرة كانت تنتظره وكان فى تسرع الرجل وفى اضطرابه المفرط شىء يدعو الى الثورة فلقد شعرت كاتيا باهانة ارتج لها كيانها كله .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم يزرها بعد ذلك اليوم قط ولم يتصل بها هاتفيا مرة واحدة ولئن ظلت كاتيا مصرة على اعتباره انسانا تافها وخليعا فانها فى قرارة نفسها كانت جد كسيفة وجد متيقنة بأن كوفئت عن عملها بهذه الطريقة الشائنة ٠ وكانت تحاول عبثا ان تقلع عن هذه الافكار وان تخنقها لتفكر فى اشياء اخرى لكن مرارتها كانت تتعاظم بالرغم منها .. وغصبا عنها . منذ ذلك الوقت اطلقت كاتيا على آلتها الراقنة اسم «اولمبيا العتيقة» بتلك النبرة فى صوتها التى لم تتبدل قط منذ ذلك العهد ٠ ومنذ ذلك الوقت ايضا وضعت كاتيا نظارات على عينيها ٠

والفيلم ٠٠ فانها ذهبت لمشاهدته بالرغم عن كل شىء ٠٠ لم تحضر عرض الافتتاح والحق يقال اذ لم يهدها احد دعوة رسمية ٠٠٠ لكنها شاهدت الشريط ولاحظت ان الفقرة التى اضافتها موجودة فعلا لكن ذلك لم يزدها الا

حزنا وكانت المشاهدة الوحيدة انتى بكت خلال عرض الشريط فى ذلك اليوم رغم ان نهاية الفيلم كانت سارة ومنعشة كنهاية كل الافلام عادة ٠

ولم يطرأ على حياة كاتيا منذ ذلك الوقت شىء يستحق الاعتبار فلقد انهى ابن ابنة عمها دراسته العليا والتحق بشغل ما وتزوجت الطفلتان التوأمتان فى فرحة الاعياد والمسرات ٠ لم نرهم يوما فى الشقة عندنا ٠٠٠ لم يزورونا قط ٠ لكن كاتيا تقول لنا احيانا والحسرة تغمرها ان الثانية تجد صعوبة كبيرة فى تدبير امورها وحل مشاكلها لذلك كانت كاتيا تعمل بالليل لتتمكن فى يوم ما من ان تشترى «للطفلة» شقة ٠

ـ سبع نسخ ٠٠٠ انا لى آلة جيدة ٠٠٠ من نوع «اولمبيا» القديمة ٠٠٠ فاذا شئت ان ترقن شيئا ما فى يوم من الايام اتصل بنا فى المنزل ٠

ولم تكن كاتيا ترفض العمل ٠ مسكننا يوجد وراء واجهات الاسمنت والبلور فى العمارات العملاقة حديثة البناء ٠٠٠ اصعد الدرج اللولبى الى فوق الى درجة من الدرج الذى نخره الزمن فستجد بابا وقد وضع بجانبه سبعة أزرار أجراس ٠ والاسم الوحيد الذى له نبرة رجالية هو اسمى انا ٠ ذلك لان الرجال كانوا يغادرون الى غير رجعة منزلنا الذى ما زال دهليزه يتضوع رائحة بارود I8I2 وجدرانه مرارة I94I ٠

فى الرابع من سبتمبر ذاك ستبلغ كاتيا الواحدة والخمسين من عمرها ٠ حيوها اذا صادف ان التقيتم بها ٠ حيوها لا أكثر ٠

تسألون عن اسم عائلتها ؟ وهل يهم ذلك ؟ اسمها كاتيا ، وكنا نسميها تصغيرا كاتيوشا ٠ ذاك اسم كان يعنى شيئا كبيرا بالنسبة الينا ٠ شيئا هاما جدا ٠

أما أنتم الشباب ٠٠ فثقوا بما أقول لكم ٠٠٠ والصدق أقول انكم ٠٠٠٠

قصة : بوريس ماسيلياف
تعريب : مصطفى الفارسى

مـع العـدد المـاضى (قصص 67)

يشتمل العدد الماضى من مجلة قصص على ثلاث كلمات وثلاث دراسات واحدى عشـرة قصـة .

وسيكون عرض لمادة المجلة كما يـلى :

أ ـ الكلمـات

ب ـ الأقاصيص

ج ـ الدراسـات

أ ـ الكلمـات :

1 ـ كلمة تخص احتفال نادى القصة بمرور عشرين سنة على تأسيسه .

2 ـ كلمة الاستاذ البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية .

3 ـ كلمة الاستاذ محمد العروسى المطوى رئيس نادى القصة .

4 ـ دراسة عن تاريخ نادى القصة للاستاذ رضوان الكونى .

ب ـ الاقـاصيص :

1 ـ « المغنى الذى سكت » لحسن نصر :

موضوع القصة يتتبع حياة ابن صانـع مزاميرتشـرد وتـاه : « ضائعـا فى الغابات البعيدة والسواحل المهجورة والمحطات المنعزلة » . ولكنه كـان أثنـاء تطوافه قد أخذ معه مزمارا وشرع يعزف عليه ألحانه الخاصة فأعجب به الناس فى مرحلة أولى ولاحقه الاطفال فى الطرق والحارات لانه كان مخلصا لفنه ، يعبر به عن مأساته وما يعتلج فى وجدانه .

ولكن سرعان ما أصبح الناس يقابلونه باللامبالاة وعدم الاهتمام وكان ذلك في مرحلة ثانية عندما صار هو نفسه لا يحب غناءه ولا يجدد أغانيــه وأساليبه في الغنــاء .

فهذه القصة ـ كما ترى ـ تصور حالة الفنان في مرحلتين :

مرحلة الايمان بنفسه وبفنه ، عندما يمارس الفن لذاته فيسعى اليه الناس اعجابا وتقديرا ، ومرحلة انعدام هذا الايمان وذلك بفقدان الهواية والحب للفن فتتداعى قدرته فلا يستطيع التجديد وعندها يتخلى عنه الجمهور لأن الفنان نفسه قد تخلى عن نفسه وأعلن افلاسه .

وأسلوب القصة يتراوح بيــن الجمل الفعليــة السردية والجمــل الاسميــة الوصفيــة ..

فالقصة فيها طرافة لانها تصور الفنان بين العطاء والقحــط بين الايمــان بالفن والهيام به وانعدام هذا الايمان ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2 ـ حكايــة التنين : لابراهيم الاسود :

القصة حكاية شعبية كما ذكر الكاتب في عنوانها ، ويؤكد ذلــك الأحداث الخارقة للعادة التي يتميز بها الخيال الشعبي في القصة ، فهــذا التنين يخرج ثعبانا صغيرا من بيضة وضعتها عائشة الجميلة في مغارة وجعلت تقدم له الغذاء حتى كبر ، ولما انطلق التنين في الحقول كان على شكل ثعبان صغيــر ، ولكنه سرعان ما تضخم بالتهامه لقطعان الاغنام وحقول القمح والشعير وكل ما يمر عليه فما (كاد يمر أسبوع حتى صار يضاهي الجبل ضخامة وصلابة) (قصص 33) ، ولم يستطع الناس ولا الحكومة ولا رجال الدين مقاومة قوته الجبارة فقرر الناس أن يقاوموه بالحيلة وذلك بأن حفروا جبا هائلا ملأوه بالحطب : « وحين سقط التنين في الكمين تحول الجب الى أتون تصاعد لهبه الى السمــاء .. وكالرعد دوى شخير الوحش قبل أن يتهاوى كجبل » (قصص : 34) . ولــم يأكل الناس شواء ، ولكن النحل لما شم رائحة الشواء أقبل من كل فج عميق ، فكثر العسل لأن النحل قد تغذى من الوحش فظن الناس أن العسل ربما يكون مسموما ، ولم يتطوع أحد ليقوم بالتجربة على نفسه ، لكن عائشة المرأة الجميلة

اقترحت على الناس أن يجربوا العسل على « بريـك » الشيـخ المسـن الأعمى الكسيح الأخرس ، لأن موته لا يعتبر خسارة .

وأثناء التجربة تحدث مفاجأة القصة التى أكسبتها طرافة وجمالا .. فما كاد الشيخ « بريك » يذوق العسل حتى يتغير جسمه وينقلـب الى شـاب قـوى ووسيم يشع من عينيه بريـق مرعب ، وقـد صاح فى وجوه النـاس الذيـن سجـدوا لـه :

«جبناء أردتم التخلص منى بحيلة قذرة كوجوهكم» (قصص : 35) •

واذا كان الناس قد استطاعوا القضاء على الوحش الحيوان بالحيلة ، فانهم خضعوا للوحش الانسان المتمثل فى الشيخ بريـك المنقلب الى شـاب والـذى استحوذ على كل مصانع العسل .

فالقصاص يرمز فى قصته الى استبدال العالم المعاصر وحش الغابة بالانسان الجديد المتوحش المملوء أنانية ، المتلهف على الاستغلال والتوفير ، الملتهم لكل شىء ، مثله فى ذلك مثل التنين المتوحش .

ARCHIVE

ان هذه القصة جميلة ورائعـة ، وجمالها يتمثـل بخاصة فى هـذه المفاجـأة الطريفة التى تذكرنى بقصة « فرانزكافكا » (Franz KAFKA) « المسـخ » (La métamorphose) فهى مثلها ـ برغم اختـلاف الحجم ـ مـن نـوع أدب الخوارق (La littérature fantastique) وهذا الادب هو الوحيـد ـ فى رأيى ـ المعبر عن عقلية الشرق الطريفة ، ولذلك فاننا كلما ملنا الى الكتابـة فيـه نلتصق بأصالتنا الفكرية والادبية أكثر ، لأننا به نعـود الى القصـة العربيـة الاصيلة المتمثلة فى « ألف ليلة وليلة » و « أبى زيد الهلالى » و « سيف بن ذى يـزن » وغيرها .. فالأدب الاصيل ـ كما أراه ـ هـو المعبر عـن موقفنـا من الحياة والكون من خلال خيالنا وعقليتنا ، لأننا بذلك نضيف الجديد وبدون ذلك نكرر غيرنا بالتقليد والاحتذاء .

أما عائشة فى هذه القصة فهى رمز للانسانية الخالدة ، تلك التى تخطىء فى الفعل احيانا فاذا بها تعانى من ذلك الخطأ ارهاقا وألما وتأخرا .

فالى مزيد من هذا النوع من القصص الحامل لأبعاد انسانية ثرية

3 ـ «توقيعات شهود عيان» لابى بكر العيادى :

موضوع هذه القصة يعالج واقع قرية ريفية يعيش أهلها على غـث الحديث وميت الآراء ، مهلمين أرضهم ورعيهم متلهين بلعب الورق والاستماع الى عمدة دجال جعل من نفسه بطلا ومثالا للفداء فى (موقعة عين الرمانة) .

ويظهر رجل غريب فى آخر القصة فتحدث المفاجأة . فهذا الرجل الغريب هو من أبطال « معركة الرمانة » كذلك « وقع [أثناءها] فى الأسر وتعرض للتعذيب حتى كاد يفقد رشده ، وحين استعاد حريته ظل هائما يبحث عن بيته وأهله ولم يكن ذلك يسيرا بعد أن غيرت السنون ملامح القرى والمدن والبشر » . (قصص 40) ، كما بحث هذا الغريب عن ابنه عبد الواحد فلم يجده ، فوعده التاجر عبد الوهاب بالبحث عنه ، وكان عبد الوهاب يتصل بهذا المناضل الفقير الذى يأوى الى الخرائب ، ويفهم عبد الوهاب من خلال ما حكاه له هذا الرجـل أن العمـدة المدعى للبطولة قد خان أصحابه أثناء (معركة عين الرمانة) فينشر هذا الخبر فى القرية . ولكى ينتقم العمدة لنفسه يتهم عبد الوهاب ـ باطلا ـ بأنـه قتل عمدا الرجل الغريب الذى وجد ميتا فى الخرائـب ، فيسجن عـبد الوهـاب ـ بسبب ذلك ـ عشر سنوات ، ولكن بعد هذه المدة أثبت محامى القضية أن عبد الوهاب برىء ، فيخرج من السجن وتسجل القضية ضد مجهول .

هذه القصة ـ بالاضافة الى نقدها لواقع القرية الممل الرتيب ـ تطرح اشكالا يتمثل فى صنف من الناس من بلادنا ادعوا أنهم من أبطال ثورة التحـريـر فنالوا المناصب والحظوة والاملاك ، ولكنهم فى الواقـع كانوا مـن المتخاذليـن المثبطين للعزائم ويمثل هؤلاء العمدة ، أما أبطال التحرير الحقيقيـون الذين واجهوا الرصاص والتعذيب والسجون فقد لف بعضهم النسيان وعاشوا فى خصاصة وفى هذا يكمن نقد القصة لواقع غير عادل كان من الواجب أن يكون على غير ما هو عليه .

وكذلك تطرح القصة مسألة الاحكام القضائية المتسرعة الـتى تصدر عـلى المتهمين دون تثبت . فعبد الوهاب اتهمه العمدة للانتقام منه ، لأن عبد الوهاب فضحه وكشف دجله للناس ، فحكم عليه بعقد من السنين سجنا ، ثم يعفى من السجن وترفع عنه التهمة ، بعد أن تسجل ضد مجهـول ، دون أن يعوض لـه ماضاع من عمره فى السجن ، فكأن عمر الانسان لا قيمة له فى مجتمع التسيب والمحسوبيـة ..

4 ـ وتضيع الاحلام فى البحر : لمحمد الخموسى الحناشى :

موضوع القصة يصف حياة ثلة من العمال المهاجريـن الى فرنسا وما كانوا يعانونه من عنت وارهاق فى سبيل الحصول على المـال .

من محاسنها المفاجأة المباغتة التى ترسم ضياع جهد هذا العامل ومـن ورائه رمز لضياع الجهد البشرى ، ومن محاسنها كذلك قدرة الكاتب على ربط عناصر قصته بعضها ببعض والانتقال من واحد الى آخر انتقالا هادئا لا يجعـل القارىء يحس بالانقلاب الفجئى فى سياق القصة .

ومن ميزات هذه القصة وصفها للمرارة التى يحس بها العامل وهو فى ديار الغربة ، والاستغلال الذى يتعرض له ، وما يحس به كل عامل من حرج عندما يهم بالرجوع الى أرض الوطن خاصة عندمـا يفكر فى الهدايا : « مهمـا أهدى الواحد منا وأعطى فسوف يجد فى النهاية أن عدد الغاضبين العاتبيـن أكثر من الراضيـن » (قصص : 44) . بل قد يمتنع بعض العمال مـن العودة لزيـارة الأهل لان امكانياته لا تسمح له بشراء الهدايا (قصص : 44) .

ومن هنات هذه القصة أن الكاتب نسى اسم بلقاسم الذى التقى بمحمود على ظهر الباخرة وعوضه باسم عبد السلام الذى بقى فى مرسيليا ، فجرى الحوار فى القسم الاخير من القصة بين شخصية حاضرة على ظهـر الباخرة وأخـرى غائبة ، وهذا خلط لا يجوز (أنظر ص : 47 ـ 49) .

5 ـ العشيقـة : لمحسن بن ضياف :

موضوع القصة يدور فى قطار ، حيـث يلتقى الراوى بعشيقة لـه قديمـة فتثير فى نفسه ذكريات الماضى ، ففى القطار يلتقى الراوى بعشيقتـه القديمة زهرة وكانت متزوجة بأحد قادة العمال الذى قتله احد الضباط ، فترملت زهرة وربطت علاقة مع رجل آخر فحملت منه ، وكان الراوى يحبها فيخيب رجاؤه فى الزواج منها لما يكتشف هذه العلاقـة .

هذه القصة ينقصها التنسيق ، فبين السياق العادى للأحداث وبين الرجوع الى الوراء فى مسيرة الاحداث نفسها ليس هناك حدود أو على الاقل فان القارىء لا يستطيع أن يتبين ذلك ، بسهولة .

6) فى ثلاجة الأموات : لنور الدين بن بلقاسم :

موضوع هذه القصة يرتكز على خطا وقع فى مستشفى ، وذلك عندما أبدلت الممرضة رقم شاب أسود مات ، فوضعته على سرير شاب آخر أبيض ، ثم أخبرت أهل الشاب الحى بأنه مات ، بعد أن وضعت الرقم الخاطىء على ثلاجة الأموات . وتحدث المفاجأة فى آخر القصة وذلك عندما يكتشف الأب أن ابنـه حى يتمتع بصحة جيدة ، فيغمى عليه ..

فنيات القصة تشتمل على الحوار والسرد والتحليل النفسى،ومغزاها يحاول نقد التسيب والاهمال فى المستشفيات ..

7 ـ القمـح : لمحفـوظ شقـرون :

الراوى فى هذه القصة يحكى عن أهمية القمح ودوره فى استقـلال الوطـن والمواطن : « فالقمح الوطنى يبنى فى النفس فرحة الحياة ، ويشبع على الوجدان الوانا من الدفء .. وقمح البحر يبعث الخذلان والتدجين ، ويفقـد الحصانـة ويعرض القيم للهزات والزلازل والتوترات » (قصص : 83) .

فالقمح سلاح فتاك تستعمله الدول الكبرى لاستعباد الـدول الضعيفـة ، فتذبح فضيلتها وتنتهك حرماتها وتصنع فيها المآسى وترفـع ألويـة الاجـرام (قصص : 84) .

ولذلك فالانسان المنتج ـ فى رأى الراوى ـ هـو انسـان الفعـل والقـوة والمناعة ، أما الانسان المستهلك فهو الانسان الصفر (قصص : 83) .

ولعل هذا الهيام بالقمح هو الذى جعل الراوى مشغوفا بحـب الارض . فهو عندما خرج من السجن ثم من المستشفى بعد سنتين من العلاج اثـر مرض ألم به فى صدره لم يتوجه الى داره مباشرة لاستقبال زواره الوافدين عليه ، وانما ذهب الى أرضه ليصافحها بمهجته وخلجات قلبه ونظرات عينيـه ، ويترك مهمة الزوار لزوجته (قصص : 84) .

فالارض هى مصدر الخير والبركة ، وهى أصل القوة والمناعة (قصص : 85)

فموضوع القصة هادف وجاد لأننا نحتاج الى مثل هذه المواضيع فى وقت نرى فيه الشباب يهرب من خدمة الارض ، الا أن القصة من حيث الفنيات ابتلعها السرد ، فالحوار فيها منعدم ، ومن شأن الحوار أن يوجد الحيوية فى النص وهو ما ينقص هذه القصة .

8 ـ شجرة التفاح : لأحمد زياد محبك :

فى يوم جميل من أيام آخر الشتاء المنذرة بقدوم الربيع يخرج الجد مع حفيدته الى الحديقة ، فترى البنية شجرة عجوزا لا تزهر فتسأل جدها عن سبب ذلك ، فيخبرها بأن (هذه الشجرة .. قديمة جدا ، لقد كبرت وعجزت ، وما عادت تزهر ولا تحمل) (قصص : 88) . وينزل المطر فيعود الجد مع حفكدته الى البيت .

موضوع القصة كما ترى عادى وزد فى لغة سليمة ، فيه ترمز الشجرة العجوز الى الثبات برغم التحول والتبدل ، وفى موضوع القصة تناظر بين الشجرة العجوز والجد العجوز ، فكلاهما كف عن العطاء ، ولكن كليهما ما يزال يأوى العصافير وهناك تناظر بين شجرة التفاح الصغيرة المزهرة وبين البنية الصغيرة التى بدأت تتفتح للحياة ولربيع العمر . (قصص: 88) وهذا التناظر هو سر جمال هذه القصة وسر بعدها الفكرى ، غير أنه يرد فى سياق القصة نفسها ما يتنافى مع الواقع الطبيعى ، كان ذلك عندما طلبت الحفيدة من جدها قطع هذه الشجرة العجوز فقال لها :

ـ « ولماذا نقطعها ؟ .. وغدا ستلعبين فى الصيف تحت ظلالها فهى أكثر أشجار الحديقة ظلا » . (قصص : 89) . اذن هذه الشجرة ليست عجوزا طالما هى تورق وتعطى الظل ، وهى كذلك تستطيع فى واقعها الطبيعى أن تزهر وتثمر على عكس ما هى عليه فى القصة .

فلا شك أن القصاص أراد أن يرمز بشجرة التفاح العجوز الى انتهاء الدور الطبيعى للكائنات ـ بما فى ذلك الانسان ـ ولكن لا يجب أن يؤدى بنا الجرى وراء الرمز ـ لايصال الفكرة الى الجمهور ـ الى مخالفة واقع الطبيعة الذى لا تتعطل فيه الشجرة عن العطاء الا اذا ماتت ، ولعل هذا ناتج عن عدم خبرة صاحب القصة بالفلاحة ، ذلك أن عنوان الحياة فى الطبيعة يقترن دائما بالعطاء والفعل .

9 ـ جلسـة خريفيـة : اضياء قصبجى :

القصة عبارة عن خواطر تدور بين ثريا وفادى وفارس ورانية حـول معنى العطاء والحب والحريـة .

من حيث المبنى الفنى لا يوجد فيها الا الحوار ، وبرغم ما فى لغة هذه القصة من شاعرية وتركيز وتكثيف فان عناصر النجاح لم تتوفر فيهـا ، لأن القصة الناجحة ـ فى رأيى ـ هى التى تبنى على حدث معين بحيث يولد هـذا الحدث صراعا معينا يجعل القارىء ينفعل به ويعيش أحداث القصة .

10 ـ الثعبـان : لعلى العريبى :

مفاد القصة أن ابراهيم توجه باكرا الى الفخ الـذى نصبه لصيـد الأرانب والثعالب ليتفقده ، فرأى فى الفخ فريسة سوداء لم يتبين نوعها ، ولما اقترب من الفخ استطالت الفريسة ، وفى طرفة عين ارتمى ثعبان على ابراهيم وجذبه بقوة اليه فسقط الرجل وأفرغ فيه الثعبان ما تحتويه جعبته من سم زعاف .

ويكتشف حسون راعى البقر ذلك فيسكت عن غنائه من شدة الحزن وصدمة المفاجأة ، ثم يخبر أهـل القرية بالحادث . القصة مـن حيث اللغـة سليمـة ، والراوى يسوق لنا الأحداث خلالها عن طريق السرد ، وهى تكشـف لنا عن معتقدات سكان القرية وتأويلهم للأحلام تأويـلا يرتبـط بمصيـر الانسـان . فالقصة لا بأس بها فى حدودها الواقعية ، غير أنها لا تحمل أبعادا تثرى رؤية القارىء ، لان التصاقها بالواقع جعلها عادية يقرؤها الجمهور فى كسل ذهنى تـام ..

11 ـ انت .. وزوجتك والحارس الذى يطاردك : لاحمد الفهيرى :

هى قصة عائلة فقيرة تعيش على بيع الملح وعلى الأجرة القليلة التى تتقاضاها ربة البيت مقابل صنعها الجبائب والبرانيس للناس .

بطل هذه القصة يعانى من أزمة نفسية حادة سببها عقوبات المؤدب الصارمة التى كان يتعرض لها فى طفولته الباكرة مثل الضرب بالفلقة لقلـة فهمه فى الكتاب ، وكذلك عقوبات أبيه القاسى ، فوالد البطـل رجل جلـف وصعلـوك لا يتأخر عن ضرب أمه وضربه مع اخوته الخمسة « القذرين الحفـاة » . ومن أسباب أزمته النفسية كذلك أنه تزوج من زليخا عن غير حب (قصص : 100) ،

وزاد فى حدة هذه الأزمة أنه وجدها ثيبا فى الليلة الاولى ، لأنها كانت قد ربطت علاقة غرامية مع البرقاوى الذى بقى يتسلل الى منزلها حتى بعد أن تزوجت ، وكان العشيق يفعل ذلك كلما خرج الزوج لجمع الملح أو لبيعه ..

ويبدو البطل خائفا من البرقاوى ، ولذلك يهادنه ولا يثور لشرفه لأن البرقاوى هو حارس مقاطع الملح يدل على ذلك قول الراوى : « ودخلت منزلك ولم يغمض لك جفن فى تلك الليلة ، يتسلل البرقاوى الى منزلك بعد خروجك ينام فى فراشك ، يضحك واياها على غفلتك وبلاهتك .. أنت أول من عرف .. ولكنك سكت .. أنت مجبول على الخوف ، تخاف من البرقاوى أن يضعك فى السجن .. أن ينفيك من القرية أن يقطع عنك رزقك ويعذبك » (قصص : 102)

فالبطل متردد اذن بين الثورة لشرفه المهدور وبين السكوت ليحافظ على لقمة عيشه ، وما سكوت هذا البطل الا انعكاس لسكوت الملايين فى العالم الثالث على الضيم والقهر فان هى ثارت لحقها وشرفها فان مورد العيش يقطع عنها ، وان هى سكتت قتلت نفسها غما وهما .

والقصة فى مجملها تسير أحداثها فى سياق سردى يمر فى ذهن البطل وهو مستلق على ظهره تحت نخلة ، وتبدو الاحداث المسترجعة نتيجة حمى ألمت بالبطل من جراء الارهاق : « امتدت يده الى جبينه المشتعل .. لمح من بعيد وراء السراب شبحا يقترب منه شيئا فشيئا .. تحامل على نفسه محاولا الاختفاء وراء الأكمة » . (قصص : 103) .

فى القصة صدق واضح وتحليل نفسى مشوق ، الا أنها لا تخلو من الهنات مثل ذكر الكاتب لبعض الكلمات المنافية للفن : الفساء (ص : 99) يضاجعها (ص 100) ، ومثل وصف البطل لأبيه بأنه : « جلف ـ صعلوك ـ تافه » . ففى واقع الأسرة العربية الاسلامية لا يصف الابن أباه بهذه الاوصاف ، اللهم الا اذا كان من الابناء العاقين أو قل ابن أبيه ، أضف الى ذلك أن عقوق الابناء لا تبرره قسوة الآباء .

ج ـ الدراسات :

1 ـ حليمة من الملحمة العاطفية الى الملحمة السياسية : لعمر الامام :

فى تحليل الكاتب للرواية قسم عمله الى عناصر تتماشى مع مسيرة البطلة فى الرواية :

أ ـ حليمة المتأزمة نفسانيـا .

ب ـ حليمة من الازمة النفسية الى الأزمة السياسية .

ج ـ حليمة من الأزمة السياسية الى النصر .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل يتتبع الكاتب تطور شخصية حليمة الى أن تصل الى الثورة على المستعمر الذى قتل أباها . غير أنه فى سيـاق التحليـل يذكر أن فى شخصية حليمة وجهين : « الوجه المأساوى والوجه الملحمى الا أن الجانب القاتم قد تغلب على الجانب المشرق فيهـا » (قصص : 52) الواقع أن حليمة تمثل المرأة التى نمت شخصيتها ـ بحكم التفاعل مـع الاحداث ـ نموا طبيعيا ، فبعد أن كانت خاضعة للاحداث صارت بنفسها تصنع الاحـداث ، وهذا مرتكز على أن الجانب الملحمى فى أعماق حليمة تغلب عـلى جانب الشعور بالضعف والوهن الذى تشعر به المرأة فى القرية بحكم أوضاعهـا التقليدية ، فليس هناك وجه للمأساة فى أعماق حليمة ، لأن المأساة تشاؤم يدفـع بالبطل الى التخلى عن الصراع وبالتالى الاستسلام لتيار الاحداث ، ففى الروايـة ـ كما أرى ـ خط واحد هو الخط الملحمى ، وما ايمان حليمة بقيم لا وجـود لها فى واقعها وغيرتها وحسها المرهف فى القسم الاول مـن الروايـة الا مـن بوادر البطولة أو الحس الملحمى الذى يسبق الفعل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

2 ـ **نماذج بشرية من رواية « وراء الشمس » : لرجب سعد السيد :**

يشكو صاحب المقال من أن صاحب روايـة « وراء الشمس » غيـر معروف فيقـول :

« وحرام أن يظل هذا الكاتب الروائى غزير الانتاج محاطا بهـذا الستار من التجاهل والصمت » . (قصص : 80) ، ولكنه مع ذلك لا يعرفنا بهذا الروائى العربى فى ترجمة دقيقة وشاملة قبل حديثه عن الرواية ، وكذلـك لا يعرفنا بالرواية نفسها ، اذ كان من الاحسن قبل الحديث عنها أن يقدم لنا خلاصة عن موضوعها وأهم أبطالها وأبرز احداثها ، ثم يشرع بعد ذلـك فى تحليلها ، لأن الناقد لا بد أن يفترض أن القارىء لا يعرف الاثر المنقود ، فيقـوم فى البداية بتقديمه له حتى يضع القارىء فى اطار الاثر ، ليستطيع تتبع مـا يقوله الناقد واستيعابه من ناحية ، وليقوم القارىء نفسه بعمليـة نقد النقـد اعتمادا عـلى ما عرفه من موضوع الاثـر .

محمـد البـاردى

نظـرية لوكـاتش فى الـرواية وإشكـاليـة الـروايـة العـربيـة

يعتبر جورج لوكاتش أبرز منظرى الواقعية الاشتراكية عامة ومنظرى الرواية بالخصوص • وكتابه «الرواية كملحمة بورجوازية» (I) الذى يحلل فيه نشأة هذا النوع الادبى وتطوره فى علاقته بنشأة البورجوازية الاروبية وتطورها منذ القرن الثامن عشر ، يثير كثيرا من القضايا التى تتعلق بتفسيـر هـذا النوع الادبى «النموذجى الحداثة» (2) فى الادب الغربى • ولكنه أيضا يطرح على القارىء العربى بطريقة غير مباشرة اشكالية ملحة من اشكاليات الرواية العربية المعاصرة وهى اشكالية علاقة الشكل الروائى العربى بالمجتمع الذى ظهر فيه • فمهما كانت الاطروحات الفكرية والنقدية التى نتبناها فاننا لا ننكر أن علاقة ما تربط الرواية بالمجتمع العربى المعاصر • ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نحدد بدقة نوعية هذه العلاقة وطبيعتها • فسنسعى فى هذا المقـال الى محاولة الاجابة عن هذه الاشكالية بعد الاشارة الى أهم الآراء الواردة فى أطروحة لوكاتش •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

1 ـ الرواية كملحمة بورجوازية :

ان هذا النص هو فى الواقع الصيغة النهائية لتقرير عن الرواية كمدخل لمناقشة حول الرواية نظمتها عام 1934 مجلة «النقد الادبى» الـروسية • ثم نشرت فى المجلد التاسع من «الموسوعة الادبية» الروسية • وقد انطلق لوكاتش من تعريف الفيلسوف الالمانى هيغل للرواية على أساس أنها «ملحمة بورجوازية» وطور هذا المفهوم مؤكدا أن الرواية هى «النوع النموذجى للمجتمع البورجوازى بولادته رأت النور ومع تطوره تطورت وبزواله وبقيام اجتمع الاشتراكى تعود

(I) عربه جورج طرابيشى ـ ط I 1979 بيروت •
(2) المصدر ـ ص 34 •

الى منابعها البطولية الاولى» وهكذا تلتقى الرواية مع الملحمة القديمة فكلتاهما «تطرح ضرورة تسليط الضوء على التعينات الاساسية لمجتمع محدد بوساطة مصادر فردية وعن طريق أعمال وآلام أشخاص متفردين ، تشكل علاقات الانسان بالمجتمع» (3)

ولكى يمكن ادراك طبيعة نمو أو تحول الشكل الروائى لا بد من ادراك التحولات التاريخية التى مرت بها البورجوازية الاروبية عبر تاريخها الطويل فوقوف أى «موقف نظرى صحيح من شكل الرواية يفترض وقوف موقف نظرى صحيح أيضا من التطور المتناقض للمجتمع الرأسمالى» (4)

فتبعا لتحولات المجتمع الرأسمالى يحدد لوكاتش ثلاث مراحل أساسية فى تطور الرواية الاروبية ·

أ ـ الواقعية الكبرى :

ان ما يميز هذه المرحلة هى النموذجية ـ فلقد عرف انجلز الواقعية فى رسالته عن بلزاك الروائى الفرنسى الشهير بأنها «شخصيات نموذجية فى مواقف نموذجية» (5) ولئن اختلف الروائيون فى مفهوم النموذجية (6) فان الايجابية تظل السمة المميزة للشخصية الروائية فيما يسمى بالواقعية الكبرى· على أنه من الجدير أن نفهم أن المقصود بالايجابية لدى لوكاتش هو تصالح الشخصية الروائية أو البطل مع واقعهما الاجتماعى · فما يميز المجتمع الاوروبى بعيد انتصار الثورة الفرنسية هو ذاك الانسجام الحاصل نتيجة تغلب البورجوازية كطبقة اجتماعية ذات نفوذ على نقيضتها الارستقراطية كطبقة اجتماعية آفلة ·

---

(3) المصدر ـ ص 42 ·

(4) المصدر ـ ص 31 ·

(5) راجع ـ الرواية كملحمة بورجوازية ص 50 ·

(6) تعنى النموذجية لدى بلزاك المعدل الوسطى الاحصائى للصفات الفردية لشريحة ما أو لطبقة ما ·

وعلى هذا النحو يقترب الخطاب الروائى من الخطاب اللحمى ذلك « ان الفرد البطولى ـ على حد عبارة لهيغل ـ لا ينفصل عن الكل المعنوى الذى اليه انتماؤه ولكن من دون أن يتمتع بوعى لذاته أولا من حيث أنه وحدة جوهرية مع ذلك الكل (7) ·

ب : **الواقعية الجديدة :**

ان رواية الواقعية الجديدة هى رواية **انحلال الشكل الروائى** ـ وهى رواية القرن التاسع عشر برمته ·

لقد بدأت هذه المرحلة بنزعة الى **الغـرابـة الـواقعية** مرت بالرومانسية واجتازتها اذ أصبحت الرواية مجرد أداة «للتمثيل الملحمى لضخامة التناقضات التى لا سبيل الى التوفيق فيما بينها والتى ظهرت مذ ذاك فصاعدا الى النور بسطوع مأساوى من رحم المجتمع الرأسمالى» (8) ·

ان استقرار المجتمع البورجوازى لم يفتأ أن خلق مـن صلبـه تنـاقضات اجتماعية جديدة ظلت تحتد شيئا فشيا فانعكس هذا الواقع الاجتماعى الجديد على الرواية وخاصة على مفهومها للبطل الايجابى ذلك «أن البطـل الايجـابى بالنسبة الى بورجوازية القرن التاسع عشر ، **مطلب دفاعى** ، مطلب موجه الى الكتاب حتى يوفقوا توفيقا ماكرا بين التناقضات بدل ازاحة الستار عنها» (9)

وقد تبلور احتجاج الرومانسية ـ التى هى ـ مزيج متباين المقادير والعناصر تبعا للكتاب والتجمعات من الاسقاطات الرجعية ضد الثورة الفـرنسية ومـن الاحتجاجات المرتكبة على بشاعة الرأسمالية التى كانت قيد الانتشار والتوسع المظفر ـ خارج النوع الروائى بل ضده باعتباره من النثر الموضوعى فأصبـح الشعر الذاتى احتجاجا عاجزا عن هذا النثر (IO) وعاملت الرومانسية النثـر «معاملة العدو اللدود» ·

---

(7) راجع ـ الرواية ···· ص 3I ·
(8) راجع ـ الرواية ···· ص 66 ·
(9) راجع ـ الرواية ···· ص 74 ·
(IO) راجع ـ الرواية ···· ص 67 ·

ان هذه الواقعية الجديدة هى واقعية نقدية أساسا · فمن خلال سعيها الى سيطرة واقعية النزعة على الواقع عن طريق رفضها للمدح والتقريظ تنقد الواقع البورجوازى وتزدريه ولكنها لا تتجاوز ذلك. هكذا تعامل مثلا فلوبير وهو أحد كبار هذه المدرسة مع الواقع الاجتماعى فى عصره ·

وقد تجسم هذا الوعى الاجتماعى فنيا من خلال رواية بدأت تتباعد عن الحبكة والموقف والبطل فمع فلوبير وزولا ـ وريث الرومانسية ـ بدأ المنعطف الحديث فى تطور الرواية ذلك أن انحلال الشكل الروائى بدأ واضحا وقد برز أساسا فى زوال النموذجية فى المواقف والشخصيات (II) .

ج : **الواقعية الاشتراكية**

ان أطروحة «الواقعية الاشتراكية» كمرحلة فنية مرت بها الرواية الغربية بعد «الرواية الجديدة» مرتبطة أساسا بدخول «البروليتاريا» الى مسرح التاريخ باعتبارها طبقة اجتماعية صاعدة منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين · ويعتقد لوكاتش الذى يتبنى المفاهيم الماركسية حسب القراءات الستالينية فى الثلث الاول من هذا القرن «أن صراع البروليتاريا الطبقى يطور على العكس عالما يمكن فيه للبشر أن يمارسوا نشاطهم العفوى ببطولة» (I2) اذ عن طريق العمل تعود **أنسنة الانسان** وعندئذ يخلق الانسان ذاته · وهكذا تعود الرواية الغربية بعد انحلال شكلها فى مرحلة **الواقعية الجديدة** الى عقد صلتها بالملحمة · اذ تعود الى مفهوم البطل الايجابى **كشخصية روائية رئيسية** غير أن مفهوم البطولة الجماعية هو الذى يحدد الفاصل الرئيسى بين الملحمة القديمة ورواية الواقعية الاشتراكية · فبطولة العمال الجماعية من خلال نضالهم المشترك لتشكيلة اجتماعية ضد أخرى هو الذى يمنح الملحمة القديمة التى تقوم على البطولة الفردية ماهيتها الجديدة · وعلى هذا الاساس يطلق لوكاتش بدون حرج مصطلح «**الرواية البروليتارية**» وهى رواية تسعى من ناحية الى الاقتراب من حدود العظمة الملحمية وتحافظ من ناحية أخرى على التعينات الاساسية للرواية ، ويعتبر أن أبرز أعلامها

(II) الرواية كملحمة بورجوازية ص 82 ·
(I2) الرواية كملحمة بورجوازية ص 87 ·

شولوخوف ـ فادئيف ـ بانفيروف ـ غلادكوف من الروائيين السوفيات وأن معلمها ومرشدها مكسيم غوركى ٠

واذ كان لوكاتش يعتقد (I3) أن انتصار الاشتراكية فى الاتحاد السوفياتى هو نهاية مسار الصراع الطبقى ٠ فان رواية الواقعية الاشتراكية أنجزت البطل الايجابى من جديد المتصالح مع الواقع نهائيا متجاوزة الاشكاليات الاجتماعية التى تخبط فيها بطل الواقعية الجديدة ٠

تلك هى الآراء الرئيسة التى تقوم عليها نظرية لوكاتش فى الرواية ٠ ولكى نفهم هذه الآراء علينا أن نحدد الخلفيات التى ترتكز عليها :

I ـ ان هذه النظرية فى الفن الروائى تقوم على قراءة للماركسية تعتبر الآن قديمة . ذلك أن لوكاتش قد تبنى الاطروحات الستالينية التى ترى أنه تم فعلا بالاتحاد السوفياتى انجاز المجتمع الاشتراكى الذى ألغى مفهوم الصراع الطبقى واذا كان صراع الانسان مع الانسان قد انتهى فان البطل الروائى يعود الى الانسجام والتصالح مع واقعه الاجتماعى .

لقد ألف لوكاتش هذا الكتيب فى الفترة التى تولى فيها ستالين الحكم ٠ وقد كان كذلك من أنصار الزعيم الثانى للدولة السوفياتية وهو «لم يكن أبدا قد شعر بأى تعاطف ازاء المعارضة اليسارية التى كان يعتبرها أقرب الى الفوضوية» (I4) وبالرغم من أن «قاعدة نظرياته الادبية كانت تقوم على رفض النظرية الارثوذكسية الستالينية» (I5) فان أثر الستالينية ظل بارزا فى كتابه «الرواية كملحمة بورجوازية» ذلك أنه ظل يعتقد أن مرحلة الواقعية الاشتراكية فى الرواية هى المرحلة الارقى فى الكتابة الروائية وهى الشكل النهائى لتطور هذا النوع الادبى ٠ وقد أكد التاريخ الحديث ما بعد «الستالينية» أن التناقضات الاجتماعية لا تزال قائمة خارج المجتمع الاشتراكى بالطبع

(I3) فى الفترة الستالينية بالاتحاد السوفياتى ٠
(I4) انظر «نظرية الادب لدى جورج لوكاتش» آلان سوينغوود/ أغلند سونولت ترجمة ابراهيم العريس ـ الفكر العربى عدد 25 ـ I982 ٠
(I5) نفس المرجع ٠

وداخله أيضا · ومن ثمة فان «انحلال الشكل الروائى» (16) تـواصل مـع الوجودية كتيار أدبى وفكرى ثم بالخصوص مع الرواية الجديدة فيما بعد ·

2 ـ ان هذه النظرية تقوم أساسا على مفهوم الانعكاس فى الادب · فالادب هو انعكاس **للعلاقات الاجتماعية الاكثر أهمية** ولامكانياتها داخل عصر **من نمط معين** والكاتب عندئذ هو **مجرد مراقب للنمطى** · وهذه النظـرية ذاتهـا طورها بعض النقاد الاجتماعيين المحدثين اعتمادا على قراءات حديثة للماركسية فبين لوسيان قولدمان أن الشكل الروائى فى الادب الغربى وتطوره نحـو الانحلال النهائى الذى برز فى مرحلة متأخرة فى الخمسينات وما بعدها فيما عرف بالرواية الجديدة ذو صلة جدلية **بأزمة الرأسمالية الغربية** (17) .

ولذلك فانه يجدر بنا لكى نفهم نظرية لوكاتش فى الرواية أن نضعها فى اطار المدرسة الاجتماعية فى فهم الادب وفى اطار مساهمة الماركسيين فى تطوير هذه النظرية ·

3 ـ وهى أيضا تعد موقفا متحمسا رافضا للاتجاه الشكلانى **الذى ظهر** بعيد انتشار الثورة الابتراكية والذى تزعمه « الشكلانيون الروس » بالخصوص .

لقد رفض الشكلانيون الروس الصلة بين الابداع الادبى والمجتمع الـذى ينمو فيه واعتبروا الاثر الادبى غايته الكلام وحده والادب له خصوصيته اذ انه لغة تتمحور على مادتها اللغوية وتجسد طاقاتها الالسنية ، وهكذا اعتبروا أن الادب يدخل تحت اطار اللغة وهو كذلك يوازى المغة (18) وعلى هذا الاساس رفضوا الوظيفة النفعية للادب وأكدوا أن وظيفة الادب الحقيقية هى وظيفـة جمالية استيتقية Esthétique

ان نظرية لوكاتش مهما كانت قيمتها لا تهم الباحث العربى فى حد ذاتها بل للاشكالية التى تطرحها على الرواية العربية المعاصرة ، فنحن شئنا الآن أم أبينا وفى انتظار ظهور نظرية نقدية عربية نجد أنفسنا نستند الى المناهـج الحديثة فى فهم الادب وتفسيره لفهم الادب العربى الحديث وتفسيره أيضا .

---

(16) مصطلح استعمله المؤلف ·
(17) أنظر كتابه « نحو سوسيولوجية الرواية » .
(18) للتعمق فى الموضوع يمكن أن نعود **الى** فصل «الشكلية الروسية» ـ نفس المرجع السابق · ص 38 ·

والمنهاج الاجتماعى فى فهم الادب وتفسيره تظل تطبيقاته على الادب العربى عامة وعلى الرواية بالخصوص قاصرة مهما كانت محاولات الدراسات الادبية ويعود الامر الى سبب نعتبره رئيسيا يتمثل بالخصوص فى فقر الدراسات الاجتماعية العربية ، فعلم الاجتماع وعلم الاجتماع السياسى فقيران الى حد مذهل فرغم بعض دراسات عبد الله العروى (I9) وسمير أمين وغيرهما فان طبيعة المجتمع العربى غير مفهومة الى حد الآن بطريقة علمية واضحة . فما هى الطبقات الاجتماعية السائدة فى المجتمع العربى الحديث ؟ وما هى الانماط الانتاجية المهيمنة على اقتصاديات المجتمع العربى ؟

قد نجد اجابات تتعلق بفترات زمنية محددة أو ببعض الانظمة العربية ولكن الجواب الشامل الذى ينظر الى المجتمع العربى فى كليته النمطية يظل مفقودا .

إن تداخل أنماط الانتاج فى القطر العربى الواحد وتفاوت هذه الانماط بين قطر وآخر وبين فترة زمنية وأخرى يجعلان الامر معقدا .

لقد أكد عبد الله العروى مثلا فى دراساته (20) بالخصوص على الدور الطلائعى الذى قامت به ولا تزال البرجوازية الصغرى فى المجتمع العربى مقدما بذلك نظرية متكاملة فى علم الاجتماع السياسى العربى . لكن مفهوم «البرجوازية الصغرى» كدلالة على شريحة اجتماعية أصبحت تتشكل تشكلا طبقيا فاعلا يظل فى حد ذاته بين الرفض والقبول لدى المثقفين العرب .

ان فقر علم الاجتماع العربى يعنى احراج الناقد الادبى العربى ، لانه لا يجد نظرية اجتماعية متكاملة ولا جدال فيها . فمفهوم البرجوازية فى المجتمع الاوروبى لا يحتاج الى نقاش . فى حين أن مفاهيم من نوع «برجوازية .. ونمط رأسمالى ونمط اشتراكى ..» لا تجد الحجة العلمية الدقيقة لاثباتها فتظل بالنسبة للباحث من باب الانتماءات العقائدية لا غير . وعندئذ تظل النتائج التى يصل اليها الناقد الادبى من باب الاجتهادات فى التأويل لا غير وبدون أن تكون نتائج علمية نرتاح اليها .

ولهذا السبب فاننا لا نستطيع أن نبرز بدقة العلاقة بين الشكل الروائى عامة والبنية الاجتماعية التى ظهر فيها ما دامت هذه البنية ليست محددة علميا .

(I9) الايديولوجيا العربية المعاصرة وأزمة المثقفين العرب .
(20) انظر خاصة : أزمة المثقفين العرب .

بيد أن الامر يزداد تعقدا عندما نلاحظ آلتزامن المذهل بين الاتجاهات الادبية على مستوى الاشكال خصوصا فى الرواية العربية الحديثة فى أكثر من نصف قرن بقليل • ففى هذه الحقبة الزمنية القصيرة تزامنت اتجاهات أدبية متعددة بين رومانسية وواقعية تسجيلية وواقعية نقدية وواقعية اشتراكية ورواية جديدة Nouveau Roman وأننا اذا انطلقنا من المنهاج الاجتماعى الذى اعتمده «لوكاتش» وطوره قولدمان فى تفسير الرواية الاروبية بالبنية الاجتماعية فاننا للاسباب التى ذكرت لا نصل الى نتائج ايجابية بل نجد أنفسنا أمام تناقض مثير فكيف نفسر تزامن روايات حنامينة (2I) وروايات يوسف القعيد وجمال الغيطانى وبالتالى كيف نفسر تزامن الواقعية الاشتراكية التى تؤمن بالانسان وبدوره فى تغيير الواقع الاجتماعى وتطويره والرواية الجديدة التى ترى تقلص دور الانسان وذوبانه فى مجتمع طغت عليه الآلية والتقنية ؟

اننا لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال الا اذا اعتبرنا أن **الحركة الادبية** عندنا هى **حركة** شكلية ومنفصلة عن التغير الطارىء فى المجتمع **وعندئذ نفهم** هذا التزامن بين الاشكال المتناقضة فهما منطقيا • على أساس **أن هذه الاشكال** ليست نابعة من المجتمع الذى ظهرت فيه وهى بالضرورة لا **تعكسه** • **وهى** أشكال مستوحاة من أشكال أمم أخرى أو من أشكال تراثية (22) •

لقد بينا فى بحث سابق (23) أنه يجب البحث عن **نظرية روائية عربية** لان اعتبارنا الابداع الروائى مجرد حركة شكلية لا صلة لها بالواقع نظرية خطيرة وبسيطة فى نفس الوقت . ولكننا لا نستطيع الى حد الآن تقديم نظريه روائية عربية **علمية** ما لم نفهم فهما صحيحا طبيعة مجتمعنا وطبيعة نموه •

محمد البـاردى

(دار المعلمين العليا)

(2I) من أشهر الروائيين السوريين المعاصرين ويعتبر من أبرز أعلام الواقعية الاشتراكية ـ راجع مقالنا «رقصة الخنجر» ودلالتها فى رواية «الشمس فى يوم غائم» المنشورة بمجلة قصص •

(22) أنظر على سبيل المثال «حدث أبو هريرة قال ••» للمسعدى •

(23) مشكلية الرواية العربية الحديثة ـ قصص 59 •

جمعة جمعة

شاهد على قبر الماضى

وقفت فى خشوع أمام القبر ، بعد انصراف كل المشيعين ، الظلام يوشك أن يسود قبة السماء ، تعلقت عيناى باللوحة الرخامية ، جلوت التراب بمنديلى المبلل بالدموع ، حدقت ذاهلا ، ما هذا الذى أقرأ ؟! انه يخالف ما اعتاد عليه الناس ، آية من القرآن الكريم ، اسم صاحب المقبرة ، تاريخ سقوطه فى هوة العدم ، هى بالتأكيد كلمات أبى ، فقد شيدت المقبرة قبل وفاته • وكان أول ساكن لها ، عرفت أبى رغم أنى لم أره ، التصق اليتم باسمى سنوات طفولتى وصباى ، عانيت منه فى حلبة اللعب ، وبين الاقارب والاصدقاء ، وكان فى وقت آخر «كارت بلانش» يحمينى من ايذاء اخوتى وعقابهم ، وقد تناوبوا الاشراف على الحياة فى بيتنا ، أنا وأمى • وحين يعلن أحدهم ثورته علي تضمنى أمى الى صدرها فى حنان قائلة :

ـ يكفى التأنيب ، لا تكونوا قساة مثل أبيكم ..

تجمعنا الخلوة أنا وأمى .. اجرجرها فى الحديث عن أبى ، وعن حجرة العقاب التى لم أجرؤ على دخولها علانية او خلسة ، احتراما لشعورها :

ـ كان أبوك يا جمال .....

يستغرقها الحديث عنه ، وعن قسوته فى تربية اخوتى • عرفت انه لم يكن يؤنب ، بل يضرب ، وبقسوة ، يحبس المعاقب ، يمنع عنه الطعام والشراب حتى يقر بالخطأ ويقسم على عدم تكراره ومع كل عقاب لأحد إخوتي يلقي يمين الطلاق فى وجه أمي ان هى طاوعت قلبها ورأفت بحال المعاقب ، سدت رمقه ، أو روت عطشه ..

حجرة العقاب ، هى الحجرة المغلقة دوما ، تتحدث عنها أمى بكثير من الرهبة، وكثير من الاسى والحزن • كلما جاء الحديث عنها تذكرت أخى الذى لم أره ، حسين ، كان حسين فى ريعان الشباب ، ضبطه أبى متلبسا بتدخين سيجارة،

اقتاده الى الحجرة ، وبعد العلقة الساخنة تركه فريسة الصراخ والبكاء ، ظل يصرخ ويبكى ، وحين كف عن صراخه وبكائه تبين أنه كتم بنفسه أنفاسه .

أقول ثائرا :

ـ انها جريمة يا أمى ، ماذا فعلت ازاءها ؟ ، كان يجب أن تتركى البيت و..

وتهز رأسها بالنفى قائلة :

ـ اترك البيت ..

ترنو الى صورة حسين وتتنهد قائلة :

ـ ايه يا ولدى ، زماننا غير زمانكم ، ما جدوى ترك البيت ، كان جدك سيعيدنى ، ولابيك أن يذلنى ، عشرون عاما يا جمال لم أترك فيها البيت مرة واحدة ..

ـ كان ابى قاسيا جدا يا أمى ؟

ـ لا يا جمال .. لم يكن قاسيا طول الوقت ..

يتخلل حديثنا التثاؤب ، ثم نفترق كل الى مرقده ، ويطوينا النعاس ، تبرر لى الاحلام عدم زواجى الى الآن ، لن أجد فى الحياة امرأة مثل أمي ، تفنى عمرها فى كنف رجل ،تحتمل قسوته ، تتقبل جبروته ، تحافظ على بيتها ، ولا كرامة لها الا فيه ..

أخى محمود ليس فيه شىء من أبى ، تسوسه زوجته ، وتسيره حسب رغباتها ، يوم تركت البيت مغضبة ، صحبنى معه لاستعادتها ، رأيته يستجدى غفرانها ، يحمل نفسه وزر أخطاء لم يرتكبها ، يقدم فروض الولاء والطاعة وهى تتمنع ، تسحق كرامته ، ورجولته ، تطرقع قطعة اللادن بين شفتيها غير عابئة، لا يهمها بيت أفنى نصف عمره فى تأسيسه ، ولا طفل ما زال يتعثر فى خطواته الاولى ، كنت أصرخ فيه :

ـ طلقها .. طلقها ..

لكنى آثرت الصمت ، فلا يعنينى أمرهما .. تحت راية الحب المضللة تزوجا، وسرعان ما انقلبت الاحوال .. لم يعد محمود يستطيع الخروج من دائرة الذل التى أحكمتها حوله ، لك الله يا أبى ، كنت رجلا بحق ..

كانت هناك أسرة قبل موته ، وما ان مات حتى تفرق الشمل ، ترك لى الحبل على الغارب .. اندفعت وراء شبابى أمتعه ، وكـأنى أمتع شبـاب اخـوتى العشرة ، وأمي بين الحين والآخر توبخنى :

ـ لو كان حيا لدق عنقك ، لعلمك الادب والفضيلة ..

أقول ساخرا :

ـ لو كان ..

بعد كل سخرية منه .. يطاردنى شبحه .. أغرق نفسى فى زجاجة خمر، أو فى لعب الورق ، أو فى أحضان امرأة .. منذ وعيت وأنا أحاول الفكاك من مطاردته ، لكنه لا يكل ولا يتعب ..

عندما كبرت ، وحين تأوى أمى الى فراشها ، أتسلل من البيت ، فسنة الحياة عندى لهو ومرح، والعمر قصير ، لا يطيله نوم ، ولا يقصره سهر ..

وجاءت تلك الليلة .. غادرت البيت ثملا ، أمى عند خالتى وستبيت ليلتها هناك .. البيت لى وحدى .. شعرت بالسعـادة ، بالحـرية .. الليلـة ليلتى دون الصحاب التقيت بها متسكعة تبحث عن مأوى ، كلهن كذلك ـ باحثات عن مأوى . سقطت عليها كالطير الجارح ، اقتـدتها الى البيت ، سعيـدا لن يقاسمنى الغنيمة أحد .. فتحت الباب ، دعوتها .. كممت فمها براحة يدى ، وصوت امى يأتينى من حجرتها :

ـ هل عدت يا جمال ؟

ـ نعم يا أمى ، متى جئت ؟

ـ أوصلنى زوج بسيارته .. اذهب الى فراشك يا حبيبى ..

ـ امرك يا امى ..

هممت باقتياد المرأة الى حجرتى ، خفت ان تصل اسماع امى همهماتنا .. أمي التى يوقظها صوت ارتطام صراصير المطبخ بالاوانى، أو دغدغة فار لكسرة خبز جافة .. أحيانا توقظها حشرجة أنفاسى ، اجـدها الى جـوار رأسـى تؤنبنى :

ـ ألا تكف عن الهباب الذى تتعاطاه ، صدرك يئز ايقظنى ..

تذكر محاسن ابى وتعود الى فراشها ، امتلكتنى الحيرة ، منيت نفسى بليلة ، هل ادعها تفلت منى ، هبطت الفكرة على رأسى كالقضاء والقدر ، فلأذهب بغنيمتى الى حجرة العقاب ، هى أنأى حجرة عن أذنى أمي الحساستين، تسللت والمرأة بعد ان خلعت حذاءها وجدت المفتاح حيث تركه أبى ، ومن بعده لم يلمسه أحد ، دلفت الى الداخل والمرأة فى اثرى ، تحسست الحائط، عثرت على مفتاح النور ، انبعث ضوء باهت من السقف ، ملأ الحجرة بجو أسطورى ، تجولت عيناى ، السقف المغبش بالتراب ، الجدران الكابية اللون، محتويات الحجرة بسيطة ، سرير لفرد واحد ، كرسى قديم من الخيرزان ، خيرزانة مرتكنة على الجدار ، سوط سودانى ملتو على الحائط كحية رقطاء ، الجو يتسلل الى نفسى باسطوريته ، يمتزج بروحى ، الجدران العارية كجسد حى ، بها خطوات غريبة لولا القدم لرأيت الدم ينزف منها ، أبـى يضربهـا بسوطه ، دوى فى أذنى صوت ، صوته .. :

ـ جميل جدا يا فأر ، لم يعد فى البيت قط ..

تلفت حولى ابحث ، هزتنى المرأة :

ـ ما بك ؟

الصوت يملأ اسماعى :

ـ يظننى ميت ..

حبست صرخة براحة يدى ، ضمتنى المرأة الى صدرها :

ـ انك ترتعش ..

ـ ألا تسمعين ؟

بعد شهقة دلال ، وهى تتجرد من ملابسها :

ـ من يا روحى ؟

ـ أبى ..

ـ دعنا منه وحياته ..

ـ انه ميت ..

ـ الله يرحمه ..

.....

تقول امى :

«كان أبوك يا ولدى ، رحمه الله ، يقول دائما ليس هناك سوى الحق ، والباطل ، الحق خير ، جمال ، فضيلة ، والباطل شر ، قبح ، رذيلة ، هذا بين وهذا بين ، شب اخواتك زهرات فى المجتمع ، الفضل يرجع اليه ، لم يحد عن الصراط المستقيم غير حسين ـ رحمه الله ـ لولا مرض أبيك ، لما كان ، لكنه قدر ومكتوب ، انت مثله ، ادعو الله ان يهديك» ..

خلعت عنى ملابسى ، اجلستنى فوق السرير ، قمت خائفا والغبار يتطاير ويملأ الحجرة :

ـ التراب ، التراب ..

نصاعدت رائحته الخانقة من الملاءة المغبرة ، وهى تنفضها ، كأننا فى قبر ، بدنى يرتعش ، أحاول طرد الخيالات المتراقصة أمام عينى ، أراه يروح ويجىء ، والسوط فى يده .. :

ـ مات قبل أن أولد ، أقصد ، ولدت بعد أن مات ..

انشقت الجدران عن صوته :

ـ الملعون يظننى ميتا ..

جذبتنى المرأة الى السرير ، دست وجهى بين نهديها :

ـ يبدو أنك شربت كثيرا ..

ـ زجاجة واحدة ..

أخذت تربت على رأسى ، تقص علي حياتها ، أقص عنيها حياتى ، أبي الذى لم اره ، غصنا مع الاموات ، أبى وأخى ، أمها وأبوها ، جدى وخالى ، اختها وعمها ، اثرثر بما لا أفقه ، تحاول ايقاظ اعضائى المرتخية ، أتحدث مع أبي :

ـ سامحنى يا ابى .. آخر مرة ..

ـ وما سبق ؟

ـ ندمت عليه ..

ـ وما يحدث الآن ..

بريق عينيه فى عينى ، جبهته المجعدة تحتوى جبهتى ، شفتاه الغليظتان تتقمصان شفتى ، ذراعه يمسك بالكرباج ، بكل القسوة تنهال الضربات فوق الجسد الممدد ، ارتفع الصراخ ، انفتح الباب عن أمى صارخة :

ـ مجرم .. مجرم ..

تبكى ، تلطم وجنتيها ، تمزق ثوبها ، تسقط فوق الارض .. اندفع

ـ امى .. امى ..

تسح عيناى الدموع الغزيرة ، تلف المرأة جسدها الدامى ، تساعدنى فى نقل أمى الى فراشها ، أبكى ، أخر على الارض كامرأة ثكلى ..

«انتم يا من تعرفوننى ، ويا من لا تعرفوننى ، حذار من نبش قبرى بالاظافر فأنا أعرفكم جميعا»

هذه كلماتك يا أبى ، كلمات لها دوى هائل ، ادق اللوحة بيدى ، بحجر ، رخامها صلد ، لا جدوى ..

ارتعبت ويد تمسك بكتفى ، تلفت وجسدى يذوب ويذوى ، وجدتها ، ألقت بنفسها بين ذراعى ، مسحت دموعى ، بحلقت فى وجهها ، قلت مذعورا :

ـ انت ؟ ، لماذا جئت ؟ ، أتحبين القسوة ؟

قالت وهى تمسح دمعتها :

ـ لا أظنك قاسيا طول الوقت ..

عبد العزيز نجم

اللـــوحـــة

.. ما كان يحدث ان يمسك بالفرشاة ، ويقف عاجزا عن العمل !. تعود أن يرفع الغطاء عن اللوحة ، وهو يحتسى كوب الشاى الدافىء ، فى ليالى الشتاء الباردة ، متأملا عمله ببطء .. عمله الذى لم يفرغ منه ، ولو كـانت لوحة بيضاء !! يبدا الحركة بالالوان ، يمزجها .. الاحمر والاخضر ، الازرق بالاصفر ، يسعد بدرجات البني المغرورة ، الاسود لونه المفضل ، الابيض لا وجود له ولا كيان .

.. الآن بعد أن احتسى كوب الشاى رفع الغطاء ، حمل المصباح ، جعلـه خلف رأسه ارتسمت جمجمته كتلة أميبية .. انبعجت ، انتفخت ، استحالت نقطة مظلمة . أعجبته اللعبة ، ما ان يهدأ حتى يمسك بالمصباح المدلى ، يدفعه، يرقص المصباح ، يعود ويقف بينهما .. رأسه باتت بقعة سوداء على اللوحة البيضاء .. ضحك . أخرج لسانه ، رفع حاجبيه ، كور شفتيه ، قطب ما بين حاجبيه ، ارتعشت جفونه ، تقلص جلد ما فوق عظمة أنفه .

.. فجأة ظلام أسود احتوى المكان .. قال مكتئبا .. (يا ربى انها ليلـة ملعونة) ! .. لا عزاء له الا قطته الخائفة ، جرى اليها حيث مواؤها الباهت المرعوب ، حملها الى كتفه .. هى أبدا ملاذه وسلوته . جـاء بهـا مغمضـة العينين .. تعهدها بالطعام الوفير ، والنومة الهادئة ، واللعب ، كل شروطه ألا تخرج الى الاوغاد .. هذا كل ما كا نيحرص عليه دوما !

.. خرج بها من غرفته العلوية حيث يقطن أعلى عمارة فى المنطقة ، سار بها محاذيا لسور السطح ، حيث ينظر الى الناس .. اعترته رعشة خبيثة جعلته يتردد فى أن يظل واقفا . النسمة الباردة جعلته ينتفض .. شعر كأن السماء تنكفىء من عليائها الى سطح العمارة .. حدق باحثا عن القمر .. هلالا كان أو بدرا .. لم يجده .. كاد يبكى . ضم قطته بقوة .

لم يمض من الوقت الا قليل .. قط ذكر ألقته السماء فى الظلمة ، كان صوته متشنجا ، حادا ، شبقيا .. قطته الانثى رفعت رأسها ، انسانا عينيها

يمسحان الارض والسماء ·· أظافرها ما كان يشعر بها ·· الآن تبـرزها ، تزرعها فى لحم كتفه !

القط ينظر اليه فى الظلام بعينين ناطقتين ، يحرك ذيله المقطوع «الازعر» بتحد ·· شواربه الطويلة يرفعها مكشرا عن أنيابه اللامعة وسط سواد ألبس الاشياء «كل الاشياء» ·· الرعب ·

·· عليه باتخاذ القرار السريع ، أن يترك قطته الانثى لذكرها المنتظر ، أو عليه بالقائها من فوق الطوابق العشرة ·· الثوانى تسجل عليـه ضعفـه وتردده · ، لاينسى الخريف الماضى ، يوم خرج من بيته حاملا معطفه ، ونظارته السوداء ، يتلصص خلفها ·· شغله الشاغل ، كيف يضبطها متلبسة مع الوغد فوق فراش الخيانة · ظل يسأل نفسه ·····

(ترى ماذا أفعل ؟ أقتلها ، أفضحها ، أسب جد أجدادها ، أم أصمت حتى تأتينى معتذرة) !!

(لا ·· لا ·· لن أتردد بعد ·· سوف أقتلها ·· وأقتله ·· سوف أعاود الرسم بالفرشاة ، وستظل عظام رأسى هى أسواد حدودها الطليقة ، أما غير ذلك فلن أسمح به ، أبدا لن أسمح)

·· ضم قطته بشدة وهو يتألم ·

، وقفت سيارة الاجرة عند محطة السكك الحديدية ، معلوماته تؤكد أنها سوف تقابله عند ساحة محطة مصر ·· قررا أن يقضيا أسبوعا فى «مرسى مطروح» ، أشعل سيجارة بالقرب من القطار المنتظر بجانب الرصيف ، قال محادثا ظله المرمى أمامه ، حيث يقف محدقا فى وجوه المسافرين ، مرتعشتان شفتاه ، ثقيلة عليه رأسه ، اكتافه العريضة عجزت عن حمله ····

(لماذا مرسى مطروح بالذات ؟.. انها تعلم أنى عرفتها هناك .. أحببتهـا فوق رمالها ·· احتوينا القمر بين أجفاننا ·· حبسنا هواءها بين ضلوعنا ، امتلكنا حبيباتها الرملية بين ثنايانا العارية ، جسدانا ألهبتهما الشمـس ، حفظنا حرارتها فينا ، ابتعلنا حروف الكلام ، مضغناها ·· امتصصنـاهـا ، أخرجناها آهات مشتاقة ·· كنت صادقا ·· وكنت (!) ···

·· (ترى هل تضاجعه فى الليل فوق رمال مطروح ؟!)

·· (آه لو تأكد لى) !

·· القطة قفزت من فوق كتفه بعد أن «هبشت» وجهه ·· الى أين ؟·· لم يلحظ (الملعونة الخائنة) ·· قالها بصوت غاضب · قطته حرصت ان تخرس مواءها ·· ولا صوت لشهيقها حتى جاءه كأنه فحيح أفعى !

، الاصوات فى ساحة المحطة تغزو رأسه ، سمع صوت أحذيتهم زاحفة·· قادمة لتسحقه ·· استشعر كعوب نعالهم البالية تهرش عينيه ، انقطع التيار الكهربائى ·· أظلم المكان ليغطى السواد كل شىء ·· جرى ·· جرى بأكثر ما يملك من طاقة حتى يضبطها متلبسة ·

·· أمسك بعصا غليظة كى ينتقم من القط الذى خطف منه قطته ·· رفعها ·· قال ·· بصوت خشن ··

(تخونين ! علمتك ألا تتركى الحجرة ، علمتك ألا تقتربى من غيرى ·· علمتك ألا تكونى الا لى ·· آه يا ملعونه ، وأنت يا ملعون) ·

، وهوى بالعصا ·

·· اقترب منهما ·· لا شىء الا جسداهما المتوحد ·

الاصوات ما زالت ، أزيز القطار ، صوت نعال الآخرين ، صاح بغير هدى ، لقد قالوا له ·· (منذ ثوان تحرك القطار) ···

·· عندما تأكد له موت قطته ! عاد الى لوحته ·

أمسك الفرشاة ، تحركت الالوان ، وامتزجت ، هبط على اللوحة البيضاء بضربات سريعة مثل ضربات قلبه !!!

عبد العزيز نجم

القاهرة